سلسلة شهادات سورية 11

لم تنته الحكاية بعد

رؤى الإبراهيمي

بيت المواطن
للنشر و التوزيع

لم تنته الحكاية بعد

رؤى الإبراهيمي

لم تنته الحكاية بعد

سلسلة شهادات سورية -11- لم تنته الحكاية بعد
رؤى الإبراهيمي

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: pietà - Luis de Morales
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2015

ISBN: 978-9953-583-53-2

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء

إلى أمهات فقدن أبناءهن.. إلى أمهات ما زلن ينتظرن..
يحملن قلوبهن أيقونة صبر وحنين
ويعلقن قمصان أبنائهن وبناتهن على مشاجب حزن لا ينتهي
فتعبق ذكراهم كرائحة الياسمين..
إلى
أمهات سوريات ما زال يتسلل إلى عيونهن نور من مكان ما...

الجندي في إجازة

1

بلهفة الأم المترقبة الخائفة الفرحة، قالت: أهلاً بالبطل، مقتربة منه في محاولة لضمّه إلى صدرها وتقبيله قبلة الملتاع. هو طفلها الذي غادرها منذ أشهر ببدلته العسكرية الكالحة، وابتسامة صغيرة ترتسم على الوجه الحنطي، ابتسامة تنمّ عن سخرية مبطنة، لم تفهمها في ذلك الوقت.

2

وقف جامداً دون حراك. لم يفتح ذراعيه ولم يستقبل لهفتها، فقط نظر إلى أركان البيت متفحصاً زواياه بما يخيّل إليه أنه في قبر لا يُعرف له قرار. وكيف لا يكون في قبر بعد ما شاهده ورآه وما قام به؟ زملاؤه الذين يعرفون قصته تماماً، لأنه حكاها لهم مرات ومرات، تعاملوا معه على أنه ضحية خطأ لا يعرفون من سببه، (حكى لهم عن موت والده والبعثة التي كانت تنتظره واضطراره لتأجيلها، لأنه معيل أمه وإخوته، والبعثة حلمه. لم يكن يعرف أنه سيأتي يوم ويقاد إلى خدمة العلم في هذه الظروف التي لم تخطر على باله، وهو شاب لا يحب العنف ولا القتال ولا

الأذى). فأمدّوه بكل الدعم، محبة وعوناً ورحمة، هؤلاء تركهم أشلاء في ساحة لا معركة حقيقية فيها.

3

ابتعدت الأم قليلاً إلى الوراء لتترك مسافة بينها وبينه علّها تستطيع فهم ما به، نظرت بعينين دامعتين إلى وجه ابنها، رأته بلا ملامح يميل إلى الصفرة، كادت أن تصرخ، لهول ما اكتشفته في هذا الوجه الذي لم تقرأ ملامحه لحظة رأته، اشتياقها ولهفتها أخفيا عنها هذا المقدار من الخوف والغضب اللذين يسكنان تلك الملامح. وجنتان غائرتان كحفرتين في أرض جافة، وعينان زائغتان كعيني رجل شرب زجاجة خمر مغشوش، ذهبت بوعيه وإدراكه.

خلع بدلته العسكرية المموّهة وحذاءه الثقيل المتسخ ورماها دون إحساس، كيفما اتفق، كأنه يتخلص من عبءٍ أثقل جسده وعقله.

يسترجع ما حدث معه: (أمامه وقف ذاك الفتى، مصوباً بندقيته نحوه، يظنه لم يكمل أعوامه الثمانية عشر بعد، كان يرتجف وكأنه لا يعرف استخدام البندقية بل كأنه يحملها للمرة الأولى في حياته. عيناه تفصحان عن رعب من ليس له في القتل قدر أو حتى في (القتال) مع زعران الحارة، بل فيهما رصيد كبير من الطيبة والبراءة. الآن يتذكر كل ذلك. بل لم تغب تلك الملامح عن مخيّلته، رسخّتها ذاكرته لحظة انفجر الدم سيلاً أحمر من جسد لن يبقى صاحبه على قيد الحياة. هو من قتل ذاك الفتى الذي بادر بالضغط على زناد بارودته ليقتله، ولم تُجْدِ مخاتلته، فالوضع أصبح إما قاتلاً أو مقتولاً.

حاول محو تلك الملامح من خياله طيلة رحلته الطويلة من حلب إلى دمشق، لم يستطع، نُقشت كالوشم في جسد ناصع البياض. زاد من

سطوتها ما اكتشفه من قدرة الإنسان على فعل شيء غير مقتنع به في لحظة نشوة عارمة يظنها ضرورية لتحقيق الذات، أو لاختبار مقدرته على تجاوز نفسه ومحاربتها حين تقف عاجزة عن تنفيذ أمر كان يرى فيه بطولة). ألم تصفه أمه بالبطل لحظة دخوله البيت؟

بطل!! ياللكلمة، أهي من البطولة أم من البُطلان؟ متى يكون الإنسان بطلاً؟ متى يكون الإنسان بطلاً، يا أمي؟ عليك أن تنسي هذه الكلمة في هذا الوقت بالذات، في هذه الظروف اللعينة التي جعلتنا نحن الإخوة نتقاتل، لا تكرّسي هذا المعنى يا أماه. أرجئيه، بل إن استطعت انزعيه من معجم اللغة، فليس أوانه الآن!

أمي، لماذا يموتون الآن، بهذه المجانية، وهذا الوقت الذي لا يصلح للاستشهاد، أتدرين يا أمي، كنت أتمنى أن ينسحب الجميع من القتال، أن نترك أمكنتنا فارغة، ونعود إلى بيوتنا بلا أسلحة، عندئذٍ ماذا سيفعلون؟ وكيف ستستمر المعارك؟

لكن، يا بني، أنت تعلم جيداً أن المعركة معركة بقاء أو موت...

لا تكملي أرجوك، سئمت من سماع هذه الحجج، سئمت من تداولها لتكون معبراً للموت وحصد الشباب. لا.. كان الأجدر بهم أن يصوبوا بنادقهم في الاتجاه الصحيح، هنا: المكان الخطأ والتاريخ الخطأ والموت الخطأ. أتدرين؟ لا أعرف أية مصادفة أعادتني إليك، كنت سأكون في عداد الموتى الآن، وكان من الممكن أن يتشظى جسدي ويتحوّل إلى نتف تُجبل مع دم شاب آخر من بلدي، تفجر جسده وأصبح جزءاً من تربة خضّلت بالدماء، فعلاً، لا أدري أي مصادفة أنقذتني. كنت كمن يمشي في جهنم، أجساد محروقة وأجساد تحترق وأجساد تنزف وأطراف تتقطع.

كنا وحدنا، جنوداً مستجدّين لا نفقه في القتال كثيراً، تركونا هكذا دون قيادة، نتخبط بما نعرف من مبادئ حمل السلاح. صدقيني لم ينجُ

إلا عددٌ قليلٌ جداً من بينهم أنا، وأقول عناية ما، أو غضباً ما، أنقذني، ولا أدري فعلاً أيهما يريحني أكثر: البقاء أو الموت؟ تخيّلي يا أماه، أن نصل إلى هذه الدرجة من اليأس، الموت أرحم من الحياة! وأنا من كان يحب الحياة حد الهوس.

الموت، قد يبدو أرحم من ذاكرة مليئة بمشاهد نعجز عن وصفها، بل لا أدري كيف سأتعايش معها. كلما حاولت طمسها ومحوها، ازدادت سطوعاً ووضوحاً، بتّ عاجزاً عن التخلص من التماهي مع أصواتهم وصراخهم وألمهم، بت عاجزاً عن التخلص من ركام الذكريات تلك وهي تحفر عميقاً في قلبي، أختنق كل يوم ويعوزني أوكسجين اللحظة، فأتنفسه بصعوبة بالغة كي أبقى على قيد الذكريات.

ينقطع الحوار إثر سقوط قذيفة هزت البيت، الذي يُرى من نافذته امرأة في حوالي الخمسين من عمرها ممددة على قارعة الطريق، بينما يتراكض الناس من حولها، بعضهم يهرب وآخرون اقتربوا لنجدتها.

4

ألم أقل لك يا أمي: أصبح الموت كثيراً ومجانياً وفي مكان ليس مكانه وفي زمان ليس زمانه، ما قلته لك يتجسد هنا أمام عيوننا على قارعة الطريق، على مقربة من أرواحنا، هذا هو الموت العبثي الذي سيتكرر كل يوم، كل وقت تهبّ فيه عاصفة الانتقام والجهل والعشوائية المفرطة في الهدم.

ابتعد خطوتين إلى الوراء، التصق بالحائط الأبيض المتسخ من كثرة تعرضه لهواء يهبّ مع كل قذيفة داخلة أو خارجة من المدينة، يقف صامتاً بعينين زائغتين، وجسد تصلّب، كأنه خشبة صليب.

5

ظلام.. وأشجار الرصيف سوداء ثقيلٌ ظلها، كأن الموت يتسلل خفية وبخبث إلى أماكن نومنا وجلوسنا، إلى مشاويرنا اليومية.

كلنا مشاريع موت، لا ندري متى يأتي! هكذا يقول السوري أينما كان..

الشاب الذي أجّل خدمة العلم

نكبر دون أن نقبض على الأيام، تتدحرج أمامنا كأنها مياه سواقٍ، ثم نصل إلى عمر الكاردينيا حين تغدو كحرف النون الكبير بلونها العاجي المخملي. نتقمص شخصيات ونتبنى أفكاراً، لا ندري ما إن كنا مقتنعين بها أم لا؟

كبرت، ودرست، وتخرّجت، لم أكن وحيد أبويّ، فطُلبت إلى خدمة العلم، وأجّلت مرة وأجّلت مرة أخرى وثالثة.. لم أقتنع مرة واحدة بما سأفعله هناك.

أقيم جدلاً بيني وبين ذاتي: يفتح لي نوافذ ضجر واحتجاج ترهقني، ها هو ذا جاري الضابط الذي لم أره يوماً إلا كمن تغريه لعبة السلطة والنفوذ، يركن سيارته أمام مدخل البناء على الرصيف دون رحمة بسكان البناية أو بالمشاة، يتبختر ببزته العسكرية ذات النجوم اللامعة على كتفيه دون أن أعرف معناها. لطالما رمقني بعينين وقحتين حد الرعب. رغم ذلك، حزنت عندما علمت أنه مات بالسكتة القلبية وهو يمارس السباحة في الاتحاد الرياضي العسكري.

ما الذي سأفعله هناك؟ ستضيع من عمري سنوات دون جدوى، لا أحب أن أكون عسكرياً، لأن هذا الاسم يرتبط بالحروب، والحروب فعل

تدمير وهدم، هدم للبشر والحجر، هدم لكل شيء، والحروب أياً كانت، خاسرة. أكره أن أحمل سلاحاً أو أتدرب عليه.. ما حاجتي إليه؟

أتدرب على الحب بكل معانيه، أنسجه في خيالي كائناً عذباً أراه في البحر، في السماء، في غصن شجرة، في برعم زهرة، في ساقية صغيرة ينداح ماؤها بين الأعشاب الطرية، فأشم رائحة الأرض ندية عذبة، أراه في قطرة مطر تتأرجح بين الأرض والسماء، أراه في غيمة..

تمنيت أن أعود طفلاً، أو أن أقفز فوق السنوات وأصبح كهلاً، فأُعفى.

يوقظني سؤال أمي الحزين: وماذا ستفعل، لم يعد بإمكانك التأجيل؟

* * *

هل استسلم للأمر الواقع أم تدحرج نحوه؟

هناك في مدينة عريقة اسمها حلب، خاض التجربة، في بداية عام 2012 كان قد مرّ على التحاقه بخدمة العلم أكثر من عام. لم يكن يعرف ماذا تخبئ له الأيام، أجّل وأجّل وأجّل. ويا ليته لم يؤجل..

تزلزل الكون من حوله، ومن بعيد تهدر الطائرات، وأصوات قذائف لم يسمعها من قبل، مدافع، دبابات، آليات لا يعرف اسمها، ها هو ذا في خضمّ معارك لم يشهد لها البلد مثيلاً، معارك، وقودها أبناؤها. نسي نفسه، صار خفيفاً كطيف ملاك يريد أن يحرس من حوله، تطاول جسده، امتد على مسافة الموت، لكنه بقي ظلاً.

* * *

الهواء بارد وصقيع يلفع وجوههم وأجسادهم بأسمالها البالية، وضوء شحيح يأتي من خلف غيمة بعيدة في وسط السماء، والمكان خربة كأن هزة أرضية بقوة ثماني درجات على مقياس ريختر، ضربتها.

لملم جسده، نظر إلى السماء، تفقّد نجومها المختبئة خلف الغيم،

نسي لوهلة خوفه، وبرق في قلبه ما يشبه ومضة سريعة ما لبثت أن غابت وغاب معها المكان.

* * *

حينذاك، كان ما زال بالإمكان نقل الجثامين إلى أهلها. عاد الشاب جثة منتفخة لا يسعها تابوت عادي، بعد أن بقي أياماً عديدة في أرض المعركة، فوُضع على لوح خشبي وسُلّم إلى أهله دون وصية، ودون حلم بالحب.

الشهيد

كما أوصيتني، لا مشيّعين، لا طقوس، لا زغاريد ولا دموع.. كيف لا دموع وعيناي تسكبان دماً، وقلبي كجذع شجرة يقطعها حطّاب بلا رحمة؟!

ها أنت ذا تغادر إلى اللامكان، إلى اللاشيء، كما كنت تقول، رحلتك تلك التي عدت منها ورأسك معبأ بما جعلك تذهب نحو العدم، ذكرت لي أفكاراً من فيلم اسمه ـ على ما أذكر ـ «مجتمع الشعراء الموتى» وركّزت على فكرة أن الجسد بعد الموت يتحول إلى ذرات، قد تصبح غذاءً لورود تربة قريبة منه.

سألتني ذات صباح، وكنت في إجازة قصيرة دفعنا ثمنها مبلغاً، أربكني شهراً كاملاً: من هم الشهداء؟ شرحت لك مطولاً، لكنني كنت واثقة من عدم قناعتك بما أتحدث به، كنت تفحمني بحججك القوية وأنت تقول لي: ماذا يفعل الله الآن؟ كيف يحصي الشهداء وكيف يفرزهم؟ الشهادة يقتسمها الطرفان، وكل طرف يتماهى معها، يحتكرها، ويقول عن الآخر: فطايس، إرهابيين، مجرمين، قتلة.. كل طرف ينزع عن الطرف الآخر صفة المقدس متباهياً بطقوسه في القتل والذبح والتنكيل. وكل ذلك، بقناعاتهم، دفاعاً عن الوطن. مساكين أولئك الشباب وقد

أُلبسوا قناعات لم يناقشوها، فلو حدث أن ناقشوها، ربما استطاعوا أن يغيّروها، ويغيّروا سلوكهم وأسلوب حياتهم.

الوطن أصبح منفى، ما معنى أن نقف هنا في هذه المساحة الصغيرة التي هي بيتنا، ونحن نخشى أننا لن ننجو من قذيفة، أو من شظايا برميل متفجر؟ ما معنى أن أنظر إلى مدينتي وأراها هباءً لا شكل لها؟ ما معنى أن تُقتلع شجرة الزنزلخت من على الرصيف وتتطاير كأنها لا شيء؟ أهذا هو الوطن؟!

بقيتَ تجادلني وأنا أقاوم رغبة في البكاء، وأدفن يأسي كي لا يتسرب إليك فيزيد حالتك سوءاً، قاومتُ تأثيرك عليّ، متناسية كل ما كلمتني به.

هأنذا أقف في البرزخ بيني وبينك، أتمنى لو كنت مكانك، في كفنك، لتستمر أنت في حياتك، فما زالت وارفة، أما أنا فلم يبق لي إلا أن أجتاز بضع درجات في الحياة.. الحياة التي ستكون صعبة حتى الموت في غيابك، حتى الفراغ، حتى الوحدة.

وبقيت أعزّي نفسي بإيماني بأنك شهيد بكفن أبيض نقيّ كقلبك الذي أنجز مهامه على مدى الوطن.

ها أنت ذا مسجى أمامي بكفنك الذي لم يكفِ طولك الفارع، فبقي قسم من جسدك خارجه، حصلتُ عليه بتعب من تبحث عن غنيمة في أيام الحرب، كفنك هذا أثقل على روحي، ووضعني في ذهول من خذله العالم حوله. غياب القماش الأبيض وندرته هذه الأيام كارثة للأم الثكلى، أشكر الله الذي تساهل معنا وسمح لنا بفعل ما نستطيع فعله في ظروف استثنائية، فالشهيد يمكن أن يُدفن بملابسه التي استشهد وهي عليه. لكن كنت أرغب أن ألفّ جسدك ثلاث مرات، سامحني يا رب، هذا ما حصلت عليه من قماش أبيض! سامحني يا بني، فأنا لا أستطيع تنفيذ رغبتك التي كنت تقولها لي دائماً: إذا متُّ يا أمي لا أريد طقوساً لجنازتي!

إلى العسكري الذي لا أعرف اسمه

ثمة رحلة كتبتها الأقدار لي لم تكن في الحسبان، رحلة فيها من الألم ما يكفي لتفجّر نبعاً من الحزن في القلب، لا ينضب ماؤه، بل ينداح ليسقي كل حواسي، كلما استيقظت باكراً وهممت بإعداد قهوتي قبل مغادرة البيت نحو تلك المنطقة «خربة غزالة».

كان لقائي الأول به، على حاجز للجيش النظامي في خربة غزالة، لم يكن لقاء، كان عبوراً من نقطة إلى أخرى، فقط نقف أمامهم بينما هم يفتشون سياراتنا ويقرؤون هوياتنا، أحياناً على عجل وأحياناً على مهل، حسب الوضع التعبوي والنفسي للعسكري. في ذلك اليوم اقترب مني ذاك الشاب الصغير الذي لا يوحي شكله بأنه تجاوز العشرين من عمره. طلب بطاقتي الشخصية، قدمتها له بسرعة، كنت أعرف أن علينا أن نبرز بطاقتنا عند كل حاجز، فكنت أضعها في مكان يمكنني من تناولها بسرعة.

قدمتها للعسكري الشاب، قرأ المعلومات المسجلة على وجهي البطاقة، نظر إليّ وابتسم ابتسامة عذبة، وقال: أهلاً بنت البلد!

قلت له: أنت من درعا؟

قال لي: أنا من طرطوس، وأنت مواليد طرطوس. إذاً أنت من بلدي.

بادلته الابتسامة وقلت له: نعم ولدت في طرطوس. وأهلاً بك.

أفسح لي المجال ودعاني للعبور بكل ود.

وتكرر العبور، والتقيت بالشاب نفسه، والابتسامة نفسها مع وضوح أكثر في إنسانيته.

كنت أفكر بهؤلاء الشبان، بحياتهم المهددة في كل لحظة، ما الذي أتى بهم إلى هنا، ما الذي حوّلهم إلى أدوات، يستعملها أسيادهم، متى وأين يشاؤون؟ معظمهم في الخدمة الإلزامية على ما أظن، خدمة إلزامية أي لا خيار فيها، يسوقونهم إليها سوقاً، وتتدخل الوساطات والحظ في أحيان قليلة في الفرز. كيف أتى هذا الشاب الطرطوسي إلى هنا، والفرق شاسع بين مدينته البحرية وصوت الريح في أرض لا بحر فيها؟!

تكرر العبور وتكررت الابتسامة، وبدت الطيبة أكثر.

يقولون عنهم: جنود النظام، قتلة، مجرمون، خائنون للوطن، وغير ذلك من نعوت. وأنا أرى فيهم أبناء وطن تخلى عنهم ربما في لحظة غدر ألّفها طامعون في المناصب والكراسي، وهم مجرد جنود منضبطين في حرب لا نصر فيها.

قالوا لهم: هذا أوانكم، الوطن لكم، أرضاً وسماء، وأنتم من يحمي الوطن. وإن استشهدتم، فالشهيد أنبل بني البشر، وسنتكفل بأهلكم، فامضوا والله حارسكم!

بعضهم يصدّق الكلام وبعضهم يفكر فيه وبعضهم...؟! لكنهم يساقون إلى الخدمة سوقاً ويشاركون في حرب يجهلون مقاصدها.

في فجر يوم معتدل البرودة، لكن قطرات مطر خفيفة تبلل ياقة الكون، خرجت من بيتي ومسحة حزن شفيفة تغلف روحي، قدت سيارتي في طريقي إلى دمشق، وصلت إلى حاجز خربة غزالة، كانت الوجوه غريبة، وكأن المكان غيره، بحثت جيداً، تأكدت أن الوجوه جديدة،

اقتربت من أحدهم، سألته عن الشاب ذي الابتسامة الودودة، ورفاقه، أين هم؟

قال بحزن حيادي: استشهدوا كلهم.

وقفت مذهولة، قبل أن تنهمر دموعي كمطر شتوي أنجبته غيمة سوداء كبيرة.

عدت إلى بيتي، فتحت «اللابتوب» كتبت على صفحتي:

«إلى العسكري الذي لا أعرف اسمه على حاجز خربة غزالة:

لا أذكر إلا وجهك البريء وابتسامتك الودودة وصليبك ولهجتك الطرطوسية، وعمرك القصير.

حزنت حين لم أجدك أنت ورفقاتك بنفس المكان، حزنت أكثر حين علمت أنك لن تعود أبداً»[1].

1- الكلام بين قوسين لـ «هند مجلي».

ندم

نكأ جرحه بظفره الطويل في بنصره، وحين بدأ الدم يتسرب من الجرح النازف أحس بقشعريرة هادئة تجتازه، أخذ يراقب الدم وهو يسيل ببطء نحو الأسفل. أغمض عينيه في شبه غيبوبة أعادته إلى حيث كان قبل أن يحملوه إلى الحافلة التي يجلس فيها الآن دون حراك.

هناك كان في انتظاره مشهد مرَّ عليه على عجل، والآن يستعرضه كشريط سينمائي بالأبيض والأسود، لا مكان للّون في ذاكرته منذ لحظة. الرجل الأربعيني الأعزل يقف أمام باب بيته فارداً يديه قدر ما يستطيع وكأنه يحميه، وهو يثبت أخمص بندقيته على كتفه الأيسر وسبابته على الزناد استعداداً لإطلاق النار.

بريق خاطف لمع في عيني الرجل الأربعيني وصل إلى عيني المقاتل الذي انزاح قليلاً من مكانه، فارتجفت يداه وانطلقت الرصاصة متوجهة إلى جسد الرجل الذي هوى كشجرة عملاقة سمع صوت ارتطامها القوي على أرض صلبة.

لم يغيّر المقاتل مكانه، وقف يتأمل الجسد الممدد أمامه، ثم دار حوله يتفحصه بدقة: أعرف هذا الوجه، نعم أعرفه جيداً، بل أعرف هذا البيت، الدمار كثير ومعالم البيوت غير واضحة، لكنني تذكرت هذا

المكان، هنا في هذا الدار كانت تعرش دالية عنب، وبعض ورود زرعتها صاحبة البيت، ياه، ماذا فعلت الحرب؟ ماذا أخفت؟ كيف تحوّل كل شيء إلى أنقاض؟!

صعقته المفاجأة وأخرست صوته، شعر بمرارة تملأ فمه. عاد بذاكرته إلى سنين ليست بعيدة، وقت جاء مع أسرته هرباً من حرب مجنونة في بلاده «جنوب لبنان» حين دمرت إسرائيل كل البنى التحتية في ضاحيته، وهدمت البيوت على رؤوسهم وشردتهم، فلم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى أقرب مكان في سورية هرباً من الموت والدمار، وكان ملجؤهم «القصير»، دون تخطيط مسبق لذلك، المصادفة قادتهم وحلاوة الروح، هو وأهله.

كانوا خمسة أشخاص، لا يحملون معهم إلا الخوف والرعب والعطش والجوع. وكانت رحمة الله ورعايته قد وضعتا في طريقهم رجلاً شهماً، لم يشأ أن يتركهم في العراء. ضمّهم إلى أسرته وآواهم كمن يأوي أهله، لم يشعروا حينذاك بغربة، بل خفّت مصيبتهم حتى غدت شبه ذكرى.

نعم، هو من استقبله دون مقابل. ألم يسعف والده المريض حين هاجمه الألم ليلاً؟ ألم يدفع ثمن دوائه؟ ألم يطعمه طعاماً خاصاً تمشياً مع تعليمات الطبيب؟ نعم، إنه هو. كيف لم يكتشفه؟ يا للحرب! أعمت بصيرته، وأجهزت على قدرته على ضبط النفس. أيعقل أن يكتشف خطأه بعد فوات الآوان؟ ماذا ينفع؟ وما ذنب هذا الرجل؟ تداخلت المفاهيم والرؤى، قالوا لي: ستحارب أعداء الله، ستدافع عن وجودك، وأنت تعرف أننا مستهدفون، وقد يُقضى علينا إن لم ندافع عن أنفسنا، هكذا فهمت القضية وعلى هذا الأساس أتيت!

هذا الرجل لم يكن يوماً عدو الله...

ترك جرحه ينزف ببطء شديد وهو يراجع المشهد كاملاً لرجل

يحتضر أمامه رويداً رويداً. اكتمل المشهد حين انتبه مذعوراً الرجل الجالس بجانبه إلى لزوجة الدم وحرارته وهو يخترق ملابسه، مدّ يده وأغمض عيني المقاتل دون أن ينتبه أحد.

كنت أنتظر شيئاً آخر

كنت أنتظره ليصحبني إلى مظاهرة ستنظم الساعة الثانية عشرة في حي الميدان. بعد أن اتفقنا على ذلك منذ آخر لقاء لنا يوم الأربعاء الماضي. وكنت قد جهزت نفسي بما يلزم، انتعلت بوط الرياضة وارتديت بنطال الجينز وبلوزة قطنية خفيفة، وربطت شعري الطويل كما كنت أفعل أيام المدرسة.

كان الموعد مؤكداً لا لبس فيه، والمؤكد أيضاً حماسنا وإصرارنا.

لكنه لم يأت..

في البداية لم أستغرب التأخير كثيراً، فقد يكون السبب زحمة الطريق، لكنه طال وامتد ساعات وأنا أنتظر. بل بدأ القلق يتسرب إلى عقلي. بدا ذلك واضحاً وأنا أنتقل من مكان إلى آخر دون داع لذلك. لاحظت والدتي ذلك، ودون مقدمات علّقت بما يشبه السؤال: تأخر؟

قلت: من؟

بهدوء ورزانة قالت: أتمنى عليك ألّا تتورطي!

قلت باستغراب مصطنع: أتورط؟ وبماذا تنصحيني ألا أتورط؟

قالت: يا ابنتي لا تظني أنني لا أومن بما أنت مقدمة على القيام به، ولكن الأمور غير المحسوبة تأتي بنتائج غير مرضية.

قلت: عمَّ تتحدثين؟

قالت: لم أكن فضولية ولا حاولت استراق السمع، لكن صوتك المنفعل ارتفع وأنت تجرين محادثتك على هاتفك الجوال، سمعت بعضاً منها وفهمت أنك تنوين المشاركة في مظاهرة، وقلتِ: لطالما حلمتُ بها، لا تستغربي إن قلت لك إنني أنا أيضاً أتمنى أن أشارك. المشاركة نوع من التعبير عن الذات والأفكار التي نحملها.

نظرت في عيني أمي مباشرة، لم تكن تصطنع الرغبة أبداً، بل كانت تبدو حزينة وخائبة من زمن مضى لم يُعطها فرصة التعبير عما تريد هي وجيلها، كما كانت تقول دائماً. أجل قرأت الرغبة المضمرة في تعابير وجهها، وحزن عينيها.

قلت: يا أمي لن أكذب عليك، نعم أنوي المشاركة في مظاهرة بل في مظاهرات طالما تمنيت المشاركة في مثلها، هأنذا أتجاوز الخامسة والعشرين من عمري ولم تتح لي الفرصة حتى الآن لأعبر عن رأي أو أي مشاعر مخزّنة في رأسي من زمن بعيد، والفرصة سنحت اليوم ولن أفوّتها. أصدقائي كلهم حدثوني عن مشاركاتهم وأهمية هذه المشاركات، وقالوا: إنها مشاعر لا توصف من الحرية والتعبير عن الذات، وعلى الملأ.

قالت أمي: أقدّر ما تحسّين به، وأقدّر حماسك واندفاعك، ولكن..

في تلك اللحظة، قبل أن تكمل جملتها، سمعت صوتاً أعرفه، نعم أعرفه، بل أحبه، وأتمنى سماعه في كل وقت، صوت مرتبك، وغير واثق، جاءني من الشاشة الصغيرة المفتوحة على الفضائية السورية، صوت يقدّم صاحبه: أنا الإرهابي مازن السعيد.

استدرت بكل جسدي نحو الشاشة، اقتربت منها لأتأكد مما أشاهد وأسمع..

نعم، إنه مازن، مازن يا أمي. مازن الذي لا يستطيع حمل سكينة

مطبخ! بل لا يعرف كيف يكره. قال لي مرات عديدة إن قلبه يتسع للعالم كله، مازن لا يعرف ما هو الكره أو الحقد.

يسألونه: أين تدربت على استخدام السلاح؟ ومن هم الذين غرروا بك؟

مازن لا يستوعب أسئلتهم. لا أجوبة لديه. لكنهم يعيدون السؤال بصيغة أخرى، وأخرى، ليقول مازن بخجل واضح: تدربت على يد الإرهابي.. وشاركت في قتل العديد.. غُرّر بي، نادم على ما فعلت.

تختفي ملامح مازن فجأة، تزوغ عيناي، يغيب المشهد يتلاشى وجه مازن وتسودُّ الشاشة، فأركض إلى الخارج، لا يستوقفني أحد حتى أصل إلى مكان المظاهرة، أدخل بين الجموع كالمجنونة، أخطف مكبر الصوت من أحدهم، أصرخ بكل جسدي: حرية حرية.. يتردد صدى صوتي بين الجموع قوياً واضحاً.

تختلط الأصوات، تتحوّل إلى هدير نهر جارف لا يقف في وجهه شيء، يختلط الهدير بصوت الرصاص القادم من الجهة المقابلة، يتحوّل المشهد إلى معركة غير متكافئة، طرفها الأول أعزل إلا من كرامته، وطرفها الثاني يأبى إلا أن يمرغ هذه الكرامة بوحوله.

مثلما اختفى وجه مازن وغابت ملامحه عن الشاشة بعد أن زاغت عيناي، اختفى كل شيء، وقطرات حمراء غطت بعض جسدي، وأنا محمولة على أكف مرفوعة نحو السماء.

على الرصيف انتهى كل شيء

أهيم على وجهي في طرقات المدينة القذرة، أركض في الحارات الضيقة الملتوية، أحمل ثقل جسدي المتهالك وأرمي به في متاهات المتاريس المنصوبة على المفارق، أقلّصه علّهم لا يرونه فأقفز فوق كل السواتر، أو أطير كالبجعة وهي تبحث عن أخواتها. أتعثر بشيء أسود لم ألتفت لأعرف ما هو، فالوقت يداهمني دون رحمة.

أمامي شارع طويل خال، أشجاره تتمايل مع هواء عاتٍ لا أدري كيف زمجر فجأة. صرت أسمع صفق أجنحة ثقيلة، نظرت إلى السماء: غيوم سوداء سميكة على شكل طيور جارحة، تحجب الرؤية. لم يبق في مجال نظري، إلا ساحة العباسيين بنصُبها الرخامية على شكل توابيت وكأن في داخلها جثث موتى أقوامٍ سحقها التاريخ. على بعد عدة أمتار منها رصيف مرصوف بالحجارة الباردة، على شكل مثلث، وخلفه سور تعرّشت عليه ياسمينة كبيرة، ورودها تتناثر خفيفةً كفراشات يحرقها الضوء. اقتربت من الرصيف، لمحت شيئاً أرعبني، خطوت نحوَه، اقتربت أكثر، قدماي ثقيلتان، أجرّهما بصعوبة، تراودني أفكارٌ سوداء تتصارع في رأسي، أحاول إبعادها، تزداد كثافة وقتامة. قدماي لم تعودا تطاوعانني كأنهما أصيبتا بشلل كامل.

بصعوبة أصل إلى الرصيف، أقتحم الدائرة البشرية الملتفة حوله! خيط الدم المنبثق من بطنه يمتد على مسافة جسده، عيناه تنظران في الفراغ، يده اليمنى تجمدت فوق جسده الهادئ، ويده اليسرى كأنها تقبض على شيء ثمين.

(لم تمض نصف ساعة على خروجه من المنزل، حتى تحوّل قلبي إلى طبل، دقاته أنهكت جسدي، تجمد عقلي، لم أعد قادراً على فكّ طلاسم ما يجول في رأسي).

قبل أن يخرج قلت له: «بلاها الطلعة اليوم!».

قال: «اليوم متل كل يوم».

قلت: «لا، اليوم قلبي مو مطّمن أبداً».

قال: «بابا صرت آمن بالقدر، عم تجي القذيفة على البيت وتقتل اللي فيه».

قلت: «أرجوك..».

لكنه أصرّ على الخروج وهو مؤمن بقدره الذي، لا أدري ما إن كان يتوقعه.

أحياناً حدسك يقول لك أشياء لا تصدّقها بل تتجاهلها، لكن حين حدوثها تعود أدراجك وتفكر: لماذا تجاهلت إنذار حدسك، ولماذا لم تأخذ به؟ تندم، تعضّ شفتك السفلى بقسوة حتى تدميها، لكن الندم عندئذ سيكون عنصراً مشاغباً على عقلك وروحك، عنصراً يفقدك القدرة على تجاوز ذاتك المقهورة. تقول لنفسك: ما الندم؟

الندم ما هو إلا حالة نفسية تطفو على عقولنا وأرواحنا، تهلكنا دون احتمال العودة إلى ما كان قبله، لكنه شعورٌ ذو قيمة إنسانية موجعة، لا بدّ أن ينتابك بعد الكارثة.

اطمأن قلبي حين جسسّت نبضه، حملته إلى أقرب مشفى، وكان

مشفى خاصاً معروفاً، كنت مستعداً لأدفع عمري، اعتذروا وقالوا ليس لدينا مكان، خذه إلى مشفى آخر. لم ينفع رجائي ولا هلعي.

احتضنته بقوة، ألصقته بجسدي، علّني أحميه، لكن الدم الفائر من شاب في العشرين، لم يهدأ، تدفق، تدفق ساخناً طرياً طازجاً حتى توقف القلب.

ياه.. أنا الأب المسكون بحبه لم أستطع ردّ قدره، القدر؟ هل لهذه الكلمة من معنى في قاموس الحياة؟ أحاول أن أصنفها مع كلماتي التي تاهت من الذاكرة، بل التي أبعدتها عن يقيني. كنت كلما نظرت في عينيه الصافيتين، أطمئن إلى أنه سيكون معي، وسيبقى معي وسأقنعه أن القدر، مجرد احتمال علينا ألا نستسلم له، ألا نمشي وراءه.

نحن لسنا في حرب مع أحد، لا أعرف من هو عدوي، هي المصادفة التي قادت شادي إلى هذا المكان، في هذا الوقت بالذات، هي المصادفة المسلطة على حياة كثير من البشر، باتوا يتعايشون مع إمكانية إبعادها عن حياتهم بأساليب غريبة ومخترعة، لكننا قد لا ننجو.

لم أحمل سلاحاً ولن أحمله، رغم عرض الدولة السخي لي ولولدي لنكون أعضاء في لجان الحي. فأنا لا أؤمن بالعنف ولا بحلوله. بقيت صامتاً، ظننت أن الصمت أبلغ من الكلام، ظننت أني أتحايل على الكلام وعلى من يريد أن يسمعه.

نعم، لم أنجُ.. خسرت ولدي. لكنني لست الخاسر الوحيد. أعرف ذلك جيداً، حين أمشي في شوارع المدينة، تقفز أمام عيني تلك الأوراق البيضاء اللعينة المؤطرة بالأسود وعلى متنها أسماؤهم. يكتبون الشهيد.. ثم يرفقونه باسم الشاب وصورته، لتبدو وسامته فنخمّن عمره الغضّ وانتماءه إلى فئة شباب يدافعون عن الوطن، وكأنهم يجمّلون الموت. أكره هذه المبررات، وأكره أكثر من يجعل من الموت هدفاً.

أعود إلى عالمي..

لا شيء، سوى هدوء مريب، يعمّ جو المدينة يتخلله بضعُ أصوات لقذائف بعيدة الصدى، تتبعها أصواتُ أعيرة نارية قريبة وبعيدة، أتسلل إلى غرفته، أبحث بهدوء عن أشيائه الحميمة علّني أعوض عن اشتياقي الحارق، أتذكر هاتفه الخليوي، الذي أصبح ذاكرةً كبيرة لصوره، ورسائله، لمذكراته الصغيرة، لدردشاته، ولربما ترك شيئاً ما في داخله يعوضني ولو قليلاً، قليلاً جداً عن فقدانه.

بحثت عنه في كل الغرفة، لم أجده، خرجت من الغرفة وسألت الجميع، والدته التي لم تغادر كرسيها منذ رحيله، إخوته المرتبكون الذين لم يصدّقوا ما حصل حتى اللحظة، لم يعنِهم سؤالي، بل ربما استغربوه.

خطر في بالي أن أطلب رقمه، أجابني صوتُ شابّ، قبل أن أكمل رجائي بإعادته، وشرح أهمية ذلك، قال لي: اشتريته من إحدى الممرضات بثمن غالٍ. وأغلق الخط فوراً، ولم يعد يجيب على مكالماتي أبداً..

وأنا بقيت تحت سطوة الحنين، يقطر قلبي ألماً على غياب لن يكون له نهاية.

كأنهم لم يزرعوا الزيتون

سأحكي الحكاية كما رواها لي أصحابها، وسأحاول أن أكون أمينة لسلاسة الكلمات وإحساس اللحظة، وذلك لأهمية المعنى وإسقاطاته على بداية الثورة السورية، كما اصطُلح على تسميتها في ذلك الوقت.

حدّثني نوار الشاب العشريني الطرطوسي، عن شكل جميل من أشكال المشاركة في الثورة، لتعلن للعالم حينذاك أن الشعب السوري واحد، وهدفه الحرية والمساواة والمواطنة، لا حمل السلاح والعنف والتعصب.

قال: مجموعة من شابات وشباب الساحل اتفقوا أن يعلنوا انتماءهم للثورة دون استعراض أو بطولات. بشجيرات زيتون ساحلية صغيرة أتوا بها إلى دوما، دوما التي تحوّلت إلى مركز للتجمع السلمي آنذاك. لاقاهم أهلها ومن معهم بفرح غامر، ثم مهدوا أرضاً صغيرة وغرسوا فيه شجيرات الزيتون، وتحلقوا حولها.

قلنا: ستكون شاهدة على ما قطعناه من وعد على أنفسنا، وأيدينا محنّاة بتراب هذه الأرض المباركة. ستكون شاهدة على ما تعاهدنا عليه. نحن شعب يريد الحرية والكرامة، نطمح إلى حياة كريمة نكون جزءاً من حراكها ونهضتها.

على مقربة من مكاننا، كانت تُحضّر جنازة شهيد دون علمنا، انتظروا حتى انتهينا من طقوسنا، ثم دعونا للانضمام إلى الجنازة شبه السرية. كل جنازة بالعلن لا تمر بخير.

حين اقتربت مع رفاقي من المكان سمعت اسمي، التفتّ نحو الصوت، كان رجلاً في الخمسين من عمره تقريباً، على أهدابه بعض ندى، وفي وقفته ما يدل على الشجاعة والتماسك، لم أره من قبل.

قلت: أتنادينني؟

قال: نعم، ألست نوار؟

قلت: نعم، أنا هو..

قال:اقترب يا بني، دعني أرى وجهك عن قريب.

اقتربت، اضطربت بداية، لكن سماحة وجهه أراحتني.

قال: ستشرفني إن ساهمت في حمل نعش ابني.

فوجئت بالطلب، وقلت له: لا علم لي بهذه الأمور يا عماه.

قال: هذه الأمور لا تحتاج إلى علم ومعرفة، أنا سمعت عنك كثيراً وعما تفعله مع أهلنا في دوما، ويشرفني أن تكون أحد حاملي النعش، فالأمر سيعني لي كثيراً.

شاركت في حمل النعش والجنازة، وصرخت معهم: الشهيد حبيب الله. لحظتئذ أحسست بجمرة في عيني وبطعم الملح في فمي. كأني أعرف شاب النعش، أو كأنه أخي. لم يكن الطريق طويلاً إلى المقبرة، لكنني أحسسته ساعات، لأول مرة في حياتي أحمل نعشاً، جسداً أو جثة. هل سيكون تدريبي الأول على ما سيأتي؟ أو هل سأكون أنا في لحظة ما، في مكان ما، صاحب النعش؟

فكرت كثيراً، فالأحداث بدأت تأخذ شكلاً آخر، لم يكن في الحسبان، ولو أن حوادث القتل ما زالت قليلة، لكنها بدأت!!

عدنا من الجنازة إلى بيت الشهيد، كنا رجالاً ونساءً، وقبل أن يتحوّل الحشد إلى مظاهرة كبيرة، بعض أهل دوما طلب مني ألا أشارك أنا وأصدقائي، لأنهم يعرفون تماماً مصير أمثالنا حين يقعون في قبضة الأمن، وحين أصررنا على المشاركة، وقلنا: ألم نقل إن الشعب السوري واحد؟

عندئذ اقترب مني والد الشهيد وعرض عليّ مفتاح بيت لا يمكن أن يكتشفه الأمن، وقال لي: هذا البيت تحت تصرفك مع أصدقائك حين تتعرضون للخطر.

ناقشته طويلاً، أن لا داعي لذلك، وأنني إن احتجت سألجأ إليه حتماً، لكنه أصر وقال: نضعكم في عيوننا، نخبئكم في قلوبنا، أنتم أبناؤنا الذين سيتابعون الدرب، وأملنا فيكم كبير.

شارك نوار بمظاهرات كثيرة واعتقل وعُذِب وأُصيب، ولم تنته الحكاية بعد!

إذن أنا مهجّرة.. وسأبحث عن ذكرياتي الضائعة

أجلس في المقعد الأمامي وهو على يساري، كأني لا أراه، لا أسمعه. يأخذني الطريق المشجر من وحدتي على عجل، أراقب ظلاله على الإسفلت الأسود، أزداد وحدة، وكلما توغلت في وحدتي أزداد حنيناً، معادلة نقلتني مباشرة إلى ما أنا مقدمة عليه.

كنا نتجه إلى مكان ليس بمقدوري تسميته، قيل لي ستجدين ما تطلبين بأسعار رخيصة، الغسالة والبراد والفرن وكل ما تحتاجين إليه من فرش فقدتِه في بيتك (بيتي في حي الحميدية في حمص ولا أدري ماذا حلّ به، كل ما أعرفه أن جنود الجيش النظامي والمعارضة المسلحة يتناوبون على دخوله).

إذاً، أنا مهجرة وعليّ أن أبحث عن أشياء تساعدني على الاستمرار في حياة مقبولة. (كلهم يقولون لي: احمدي ربك الذي حماك وزوجك وابنك).

نعم أحمد، لا أدري من؟ أنا وابني وزوجي على قيد الحياة..

نسوا الذكريات والحنين إليها، نسوا لحظة حصولي على بيت، ضمّني مع أسرتي الصغيرة بعد غربة موجعة، بيت حملت مفتاحه كتعويذة لا أتخلى عنها ترافقني أينما كنت، نسوا أنني أمضيت جلّ عمري في بيت

حملته في قلبي وما زلت، بيت كل جدار فيه تحاكيني لوحاته عن معناها، تلك التي رسمها «عبد السلام عبد الله»، تنثر شذاها في أرجاء البيت خيمة من عطر، وتلك التي رسمها «رضا حسحس» تنقلني إلى عالم فسيح بين الاختصارات الملونة بالأزرق والأخضر والناري، أو تلك التي رسمها «زهير حسيب»، تخاطب في مخيّلتي، امرأة حملت إرث مجتمعها ونقلته من جيل إلى جيل في أثوابها ومناديلها وحليها. وتلك التي رسمها «جورج بيلوني»، تضعني أمام نفسي لتقول لي: الحياة ليست عقلاً فحسب، انتبهي إلى روحك...

نسوا علاقتي بموسيقاي، بفيروز الصباح، وصباحاتي قرب النافذة مع قهوتي وورودي وياسمينٍ عرّش على شرفة بيتي.

الآن أنا أبحث عن بديل لحياتي، أعرف أن البديل لن يكون بجماد، لكن للحياة ضرورات. سأبدأ من جديد، بيت جديد وفرش جديد، لا رائحة فيه، لا لمسة حنونة، لا شيء مما تدربت عليه من عشق للأشياء والأماكن.

كيف سأبدأ؟ البدايات مربكة وقد تكون فاشلة.

قالوا ببساطة: ستجدين ما تطلبين هناك، في ذلك السوق الذي لم أستطع ذكر اسمه.

ذهبت، نعم ذهبت لأشتري البضاعة المسروقة من بيوت، قد تكون لأصدقائي، لجيراني، لأقربائي، لأحبائي. لي..

هأنذا أدخل أول محل، بوجل وعلى مهل أمشي، أسمع ضربات قلبي وأخشى أن يسمعها غيري، أشعر بها كدقات طبل في احتفال رسمي. أتقدم خطوة، ثم أتراجع، ثم أخطو، تنتصب أمام عيوني أشكال لا أميزها، غمامة كثيفة أمامي، لا أسمع ما يقوله صاحب المكان. فقط تصلني ابتسامته التي تحمل ألف معنى.

يقترب زوجي مني، يهمس في أذني: ما الذي أعجبك؟

أصحو، أنظر من جديد، غسالات، برادات، أفران، نعم كل ما أحتاجه، وبأسعار مغرية، والبائع يجلس في مكانه لا يتحرك، يستخدم يديه كثيراً، يعطي أوامره (للصبيان) الذين يركضون في المحل من جهة إلى أخرى كأنهم رجال آليون. ولكن هل سأشتري من بائع، يتاجر بإنسانيتنا، يغتال حميميتنا التي نحرص على حمايتها ليبقى لنا شيء نحتمي به؟!

«غنائم حرب» هي ما يراها وأمثاله كثر..

في وسط المحل طاولة طويلة، مغطاة بورق جرائد وفوق الجرائد تتوزع أواني مطبخ، كاسات، فناجين قهوة، فناجين شاي، ملاعق.. إلخ. وكلها ناقصة العدد، أي كلها أقل من اثنتي عشرة قطعة، ولا طقم كامل. فكّرت: من أي مطبخ سرقت هذه الأشياء؟ من هم أصحابها؟ لفت نظري مجموعة فناجين قهوة تختبئ خلف إبريق بلاستيكي أحمر اللون، اقتربت منها، اقتربت أكثر، سحبت فنجاناً، أعرفها.. نعم أعرفها، بل أحفظها عن ظهر قلب، هذه فناجيني، فناجيني التي أشرب بها قهوتي كل صباح وأنا أسمع صوت فيروز، ناديت زوجي بصوت يشبه العويل، خاف واقترب مني: ما بك؟ كأني بلعت لساني، أشرت بيدي إلى الفناجين وبدأت ببكاء مرّ. كما لم أبكِ من قبل،كنت أشعر أن كل جسدي يبكي.

لملم زوجي الفناجين ودفع ثمنها، وشدّني من يدي وأخرجني من المحل وأنا أبتلع دموعاً مرّة، لم أذقها من قبل..

للمكان سلطة الحياة علينا

وأخيراً تعبر عتبة باب بيتها الخشبي الأنيق، ودمعة في زاوية العين، تخشى أن تذرفها فيستشفُّ مدى حزنها، فيحزن.

تُحكم قَفل الباب، ظناً منها أنها ستحمي ما بداخله من مقتنيات عمرها وذكرياتها المخبأة في زوايا المنزل وستائره وأغطية سرائره.

إنها بداية صيف 2012، لم تعتد أن تترك بيتها في بداية الصيف. في حمص كما في باقي المدن السورية، إنه وقت إعداد (المونة) للشتاء من الخضار المتوفرة، ووقت تعزيل المنزل، وضبّ السجاد. إذاً كيف ولماذا ستغادر قبل أن تنجز مهامها؟

لا خيار، المدينة القديمة في حمص مشتعلة والبقاء فيها مغامرة، والمعارك لا توفر بيتاً آمناً، ولا تستثني مكاناً حتى لو كان حيادياً، هذا إذا استثنينا الضربات العشوائية والمقصودة للمعارضة والجيش والقنّاصة المنتشرين في كل مكان.

* * *

في الطريق الذي تعرفه تماماً وتألفه كما تألف حارتها القديمة، الطريق الممتد من حمص حتى «وادي النصارى». لم يكن ثمة ما يثير الريبة لديها. بساتين القرى المنتشرة على جانبي الطريق هادئة لا حركة

فيها، وحدها أوراق الشجر تحركها نسمات خفيفة تهبّ من مكان ما، تصل إلى وجنتيها أحياناً، فتشعر بطمأنينة مؤقتة لا تلبث أن تغادرها حين تتذكر أنها آتية في غير موعدها إلى هذا المكان.

كان قد طلب منها أن تجهز نفسها للسفر وأن تحمل ما هو ضروري لرحلة قد تطول. في البداية رفضت بحجة أنها امرأة عجوز لا تتدخل ولا يعنيها ما يدور خارج منزلها. عندئذ اضطر أن يشرح لها مطولاً أن الحارة لم تعد آمنة وأنها ليست هي المستهدفة، ولكن عبثية الحرب وما وصلت إليه يتطلب الحذر من الجميع، كما شرح لها أن أبناءها وبناتها شركاؤهم في هذه الرحلة، ويجب أن لا تبقى وحيدة هنا.

* * *

الجميع نيام والكهرباء مقطوعة، والظلام خيّم منذ زمن على المكان، وحدها مستيقظة، بحثت من خلف الستائر عن ضوء سماوي يبدد هذا الظلام، كان في الأفق نجمة صغيرة جعلتها تركّز بصرها عليها، تذكرت كلاماً عن حصص البشر بالنجوم. (هل هذه نجمتي، إن كان لكل منا نحن سكان الأرض نجمة في السماء؟ ربما تكون نجمتي، ها هي ذي وحيدة في فضاء واسع وأنا وحيدة في مكان يعج بالساكنين. أنا يمسك الأرق بتلابيب روحي وهم نيام، لا أدري لماذا علقتُ في هذا الأرق المضني؟).

تتذكر أنها أغلقت بابها جيداً، وأغلقت النوافذ كلها، لكنها لا تتذكر إن كانت أخفت صور حفيداتها وهنّ عروسات بفساتين بيضاء، وأحفادها بياقاتهم الأنيقة، هل تركتهم على الكومودينة؟

تذكرت أنها تركت مطرزاتها على سطوح الطاولات والطربيزات، بل تركت شالها الصوفي، المشغول يدوياً منذ عشرات السنين، في ركن ما لم تعد تتذكره.

تحاور نفسها: نعم، تركتها، وماذا في ذلك؟ دائماً أتركها وأسافر وأعود وأرى كل شيء في مكانه. لا، هذه المرة الوضع مختلف، بيتي في شارع الحميدية وهناك تدور معارك شرسة، ومصير بيتي مجهول. لا.. لا.. تؤشر بيدها علامة رفض، سيبقى بيتي كما هو لن يمسّه أحد. جيراني كأهلي سيديرون بالهم على بيتي.

عادت إلى فراشها بعد أن تلمست طريقها في الظلام. بهدوء رفعت الغطاء واستلقت وعيناها مفتوحتان.

* * *

نشرات الأخبار التي أصبحت تنوب عن كل البرامج الأخرى، تبث كل يوم أخباراً عن حمص، وعن حمص القديمة غالباً، تسمع تلك الأخبار، تحدّق في الصور المروّعة التي ترافق الخبر علّها تقع على صورة لحيّها. الأمر صعب!

تتتالى الأخبار وتسمع أن أحياء حمص القديمة محاصرة، إنها تعرف عدداً لا بأس به من سكان تلك المنطقة ودائماً تسأل عنهم: هل هم محاصرون؟ لا أحد يجيب، وإن أجابوا قالوا: لا نعرف شيئاً. لكنه الأب فرانس، ذاك الرجل الذي طالما كان لها ولكل أبناء حمص الأب الروحي الذي لا يبخل على أحد بأي مشورة أو مساعدة، الأب فرانس محاصر معهم (لا أصدق أن رجلاً كهذا يمارس عليه أي نوع من الضغوط ولا من أي جهة كانت، هذا الرجل لا يعرف إلا المحبة، أعرف أنه لن يترك من معه حتى آخر لحظة).

يتكرر حديث أبنائها عن احتلال بيوت من قبل الجيشين الحر والنظامي، ثم يتحدثون عن احتلال بيوت أحياء حمص القديمة من قبل الجيش الحر لتحويلها إلى موقع أو تحويلها إلى سكن لعائلات جاءت من مكان آخر.. الحديث يتجاهل بيتها تماماً، حين تسأل، يقولون: اطمئني،

سألنا وقالوا لنا إن بيتك ما زال كما هو. تطمئن قليلاً. يعاودون الحديث وبالأسماء، بيت فريد احتُل، وبيت ميشيل وبيت خلدون وبيت عادل. تسمع وتنصت. في يوم آخر تضاف أسماء إلى الأسماء السابقة. ويتحدثون عن حصار وجوع، عن خلع أبواب البيوت ونوافذها وتحويلها إلى وقود، يتحدثون عن تكسير الأثاث وتحويله إلى وقود، يتحدثون عن سرقة البيوت، لكنهم لا يتحدثون عن بيتها. تسمع، تسأل: الجواب نفسه.

تدخل المرأة في حالة سكون رهيب، وفي ما يشبه الإضراب عن الطعام. بعد أن شاهدت صورة الأب فرانس ومن معه في حالة مزرية لا إنسانية. تذكرت أمسية له وهو يتحدث عن الحب والكفاية، تحفظ بعضاً مما قال، تتذكر: «خذ واقبل مني يا ربي حريتي كلها، خذ مني ذاكرتي. خذ مني عقلي وإرادتي كلها، كلي وما وهبتني، اقبل مني يا ربي ما ملّكتني، كل شيء لك أعيده إليك، فتصرف فيه بحسب مشيئتك، أعطني حبك، أعطني نعمتك، وهذا يكفيني». كانت ترى فيه أملاً ولو صغيراً. كان يقول لهنّ: بالحب والتسامح نحلّ أكبر المشاكل.

كانت تراه رمز حمص القديمة، وجوده يعني الاطمئنان، إنه يعطيها بعض أمل.

* * *

بقيت المرأة على هدوئها التام وصمتها المطبق وهي تدرك تماماً أنهم يكذبون. كذبهم لم يكن كذباً بل مداراة لوضعها، خشية حساسيتها المفرطة تجاه بيتها..

تحاول أن تصدّق الكذب، أو تدّعي أنها تصدّق، لأنها تعرف أنهم يكذبون حباً بها.

الكذب الذي يخترعه من نحبهم ويحبوننا إنما هو مسكّن لآلام مؤقتة، يريدون لنا أن نتجاوزها دون ألم. يخترعونه ليؤجلوا الصدمة،

ظناً منهم أن الوقت لم يحن بعد ليقولوا لنا الحقيقة، وعندما نتأكد من أنهم يكذبون، عندئذ قد تكون النهاية.

يصيب العجوز ما يشبه الشلل النفسي، فهي لم تعد قادرة على النهوض من مكانها إلا بمساعدة شخص ما، لم تعد قادرة على الكلام كما يجب. باتت على شفير موت مؤجل، يؤجله ما تراه من قدرة المحاصرين على التحمّل والاستمرار.

* * *

2014/5/4 ما زالت المحطات التلفزيونية تنقل أخباراً عن مصالحات في أحياء حمص القديمة، ونقل المسلحين إلى خارج حمص، وتسوية أوضاع بعضهم. الكل مشغول بهذه الأنباء، يحللون نتائجها إن حصلت، والجميع يبني تصوّراً عن حالة بيته وحيّه. أحدهم يأمل أن يجد بيته ولو جدراناً، وآخر يتمنى أن يرى بيته كما تركه.

تصغي تحاول أن تستقرئ شيئاً.. لا شيء يدل على حالة بيتها. تفتح ذاكرتها، تتوالى الصور المغبشة، مرة تدخل مطبخها الأنيق تتجول في أنحائه، تجلس في الركن المعدّ لاستراحتها بعد عناء الشغل، ومرة تدخل غرفتها النظيفة المرتبة بعناية، تجول ببصرها على كل محتوياتها، تقف عند صورة كبيرة بالأبيض والأسود، لها ولزوجها. تنهمر الدمعة المخبأة في زاوية العين.

* * *

في اليوم الذي أذيع فيه نبأ اغتيال الأب فرانس، انسحب كل أمل من روحها، فوجدوها ممددة في فراشها بسكون عجيب، وبيدها ألبوم صور مفتوح على صورة تجمع كل أبنائها وأحفادها على مائدة في بيتها، يبدو أنه يوم أحد الأعياد التي تعوّدت فيها أن تجمعهم كلهم على غداء أو عشاء..

في اليوم الذي أذيع فيه نبأ اغتيال الأب فرانس، كانت قد التقطت بضع جمل من زائر لا يعرف حساسية وضعها، وهو ينقل خبر احتلال بيتها. فجاء النبأ ليكمل ما سمعته اليوم، ولم يعد الموت مؤجلاً..

بقي يتيماً... التبني ممنوع!

الطريق طويل طويل والقصف يشتد، والموت يتربص بنا من جميع الجهات. أسرتي الصغيرة (زوجتي وولدي وأنا) نطوف في الفراغ، لا ندري أي الدروب نختار. أحثّهما على السير علّنا ننجو!

لا أفكر بنجاتي أنا، لكن ماذا لو نقصت هذه العائلة الصغيرة معيلها، أين سيتجهان؟ هذا ما كنت أفكر فيه، أمرأة وصبي لم يتجاوز سنته الأولى بعد. بأم عيني رأيتهم مدججين بأسلحتهم وعتادهم يقتحمون المنازل، وأول ما يفعلونه، قنص امرأة وإهانة أهل بيتها باغتصابها، دون مراعاة لأي مشاعر ولا حتى الالتفات إلى الأطفال وهم يشاهدون تحويل أمهاتهم إلى فريسة ممزقة. بل حين يبكي الطفل ينهره المغتصب، وقد يضربه ضربة قاضية.

إذاً، عليّ أن أحافظ على الجميع كي لا نتيه في حياة لا ندري ماذا تخبئ لنا.

مشينا ومشينا، شيئاً فشيئاً حلَّ الظلام، قلت في الظلام نحتمي، نضيع عن الأعين، لكنني فجأة اكتشفت لعنة الظلام، حيث لا نجمة في السماء تدلّني على وجهتي، ولا بصيص نور يرسم لي ملامح دربي، ولا أستطيع إشعال أي شعلة كي لا تتحول إلى دليل على وجودي.

تابعنا على غير هدى، نتشبث بخيوط عنكبوت لامعة ممتدة تخيّلناها، لا تلبث أن تنقطع، لنضيع مرة أخرى في ظلام قاس، طمس كل المعالم.

في قرى حلب النائية الخالية من الخيال، يأتينا فجأة صوت من المجهول، عواء كلب داشر، نرتعب، نرتعش، ولم أكن أرتعب في الماضي، نتجاهله عمداً، بل نختبئ تحت شجرة لا ظل لها ظهرت أمامنا فجأة. تلتمع عيناه، نتجاهله، نحسّ به يقترب، نلتصق بجذع الشجرة، لكن الكلب لم يكن يرانا أبداً، أكمل طريقه على مهل وغاب لمعان عينيه.

قبل شروق الشمس، كنا على مشارف مدينة حلب، وكان التعب قد حوّلنا إلى أشباح غير قادرة حتى على الكلام.

تأتي العناية الإلهية أحياناً مباغتة رحيمة.

طرقت أول باب صادفته، فُتح الباب، وقفت متسمراً أمام امرأة في الثلاثينيات من العمر، دُهشت المرأة لمنظري ومنظر أسرتي. مرَّ وقت لا أستطيع حسابه، دون أن يتكلم أحد منا، ثم بدأت هي السؤال وبلغة عربية مكسرة قليلاً لكنها مفهومة: من أنتم؟

قلت لها: عابرو حياة..

قالت: عفواً؟

انتبهت إلى أنني أتحدث إلى شخص من لحم ودم، لا ينتظر مني مخاتلات أو كلمة في اللغة.

قلت: كما ترين، نحن أسرة هُجرنا من بيتنا بل اقتُلعنا، ولا أدري ماذا أقول أيضاً..

قالت: تبحثون عن مأوى؟

قلت: نعم.

نادت: آغوب؟

ظهر رجل يقاربها في العمر، أبيض الوجه ذو ملامح مريحة، اقترب من الباب وقال: تفضلوا تفضلوا.. لماذا تقفون هنا؟

ترددنا، أصرّ، فدخلنا.

كان البيت عبارة عن دار عربية فيها العديد من الغرف، استقررنا في واحدة منها، وأصبحنا كعائلة واحدة، فإضافة إلى الزوجين، هناك بنتان الأولى في الخامسة عشرة من عمرها والثانية في العاشرة تقريباً. تحوّل ابني أحمد إلى مدلل الأسرتين. فالبنتان تطعمانه وتعتنيان به من كل النواحي، وزوجتي اطمأنت كثيراً للوضع.

مضى يومان ونحن لا نصدّق أننا في أمان وفي بيت يأوينا من جديد. أفهَمنا الزوجان أنهما لا ينسيان أبداً ما قدّمه لهم أجدادنا أثناء هروبهم من مذبحة الأرمن، وما يقدّمه الآن، على الرغم من تواضع وضعهم المادي، ما هو إلا جزء من رد الجميل.

لا أخفي عجباً حين أقول: صعقني الكلام وأعطاني أملاً ليس قليلاً.

* * *

وسال دم غزير بمقتل الزوجين المهجّرَين، في زقاق ما، قبل أن يصلا إلى بيتهما لتفقّده، حين داهمهما الحنين، وتركا ابنهما في البيت مع الفتاتين، وهما مطمئنان، كما قالت الأم: لا أخاف على أحمد وهو معكم، فأنتم من سيكون سنداً له مهما حصل.

* * *

نقصت العائلة ثلثي أفرادها، نجا الطفل، دون أن يعرف شيئاً.

صحت العائلة الثانية على وضع لم يكن بالحسبان، في الأسرة فرد جديد. ماذا يفعلون به؟!

الفتاتان تعلّقتا بالطفل وأصرّتا على الاحتفاظ به، لكن على الوالدين

أن يبحثا عن حل قانوني. لا يعرفون هل من أقارب للطفل، هل سيبحث عنه أحد؟

بلّغوا الشرطة. الشرطة نفت علاقتها بالموضوع، وطلبت من الأسرة التوجه إلى أحد المشايخ لحل المعضلة.

اجتمعت الأسرة وناقشت المسألة، وصلوا إلى نتيجة: نسأل الشيخ، ثم نتبنى الولد.

الحزن خيّم على الأسرة والبنتان عملتا مناحة.

التبني في الإسلام محرّم، سيكبر الطفل ويصبح شاباً، وستتكشف عليه الصبايا والأم، سيختلطون به، وهذا من المحرّمات. والأهم حفظ النسب.

الأسرة وافقت أن يُبقي على اسمه ونسبه.

الشيخ رفض رفضاً قاطعاً! وأصرّ على وضعه في ميتم إسلامي حرصاً على دينه.

لم يستوعب عقل الفتاتين ما قيل، بقيتا ترددان: سيكون أخانا الصغير، سنهتم به، سنعلّمه، سنعوّضه حنان أمه..

وما زالت الأسرة التي تعلّقت بالطفل تبحث عن حل..

المصادفة أم القدر؟

شاءت المصادفة أم شاء القدر؟ لا فارق بين المعنيَين في مثل هذا الحادث، النتيجة واحدة والموت موت.

شرفة منزله تطل على شارع عريض، على جانبيه رصيفان للمارة، لا يخلوان من بضع سيارات تحوّلهما إلى موقف مؤقت أو دائم. حتى أن بعضها (مشدّر) مما يعيق حركة المشاة، وهو من الشوارع المعرضة لهطول القذائف من كل صوب.

الغيم الأبيض يرسم أشكالاً في السماء، تراها كما يرسمها خيالك أو تسقِط عليها ما يمليه عليك عقلك الباطني، وفي مثل حالنا وما نراه من أنواع الأسلحة والمتفجرات، قد تراها برميلاً، أو قذيفة هاون، أو ظل طائرة، وفي أحسن الأحوال، في لحظة رومانسية، قد تراها عربة طائرة كعربة «بابا نويل» تحملك إلى مكان أكثر أماناً لا قتال فيه..

لا أدري ماذا كان يرى فيها، لكنه كان يحدّق فيها كأنه لم يرَ غيمة من قبل، يفتح عينيه على اتساعهما، ويرسم خطوطاً في الهواء. كأنه يقيس المسافة الواسعة بين ضجره واحتمال نجاته من خطر لا يعرف من أين يأتي.

يضيق الفراغ بصوت هادر مرَّ من فوقه وسقط على الرصيف تحت

شرفته مباشرة، يتحوّل بصره إلى أسفل، يستدير دورة كاملة تكاد تُسقطه، يبحث عن الباب، يهبط الدرج مسرعاً، يصل إلى الرصيف، يقف مدهوشاً: إنه حلاق الحارة، المنشفة في يده المبتورة، ملطخة بدم طازج، وجسد لا يخفي ما تشوّه فيه، يخطو خطوة نحو الحلاق الذي تربطه به صداقة الجار وصاحب المهنة، ليتأكد من وضعه، صوت هادر آخر يشقّ الحزن الذي بلل عينيه لحظة اكتشاف الحقيقة، ينظر إلى الأعلى، القذيفة اخترقت منزله الذي تركه للتو. رغم الحزن، سُرَّ من حوله مهنئين بسلامته وحمدوا الله على أنه غادر المنزل، لم يكد يرد عليهم وهو ينظر إلى منزله، حتى ضربت رأسه شظية حارقة أردته، فمال الجسد حتى التصق بحلاق الحارة وامتزجت الدماء طرية ساخنة، وانسربت عبر تراب الرصيف الذي ظهر بعد أن كشطت الشظايا زفته، وعبقت رائحة الموت مخضبة برائحة قهوة مغلية على نار هادئة، فاحت من شرفة قريبة، لا يعرف أهلها ما ينتظرهم.

حصل ذلك في أحد أحياء مدينة حلب في الشهر العاشر من عام 2013.

كل شيء تحت السيطرة

كنت أقود سيارتي في شوارع دمشق المزدحمة، وأزجي الوقت بالسماع إلى أغانٍ من إذاعات الـ «F.M» التي تبث أغاني متنوعة مسلية، عربية وأجنبية، وكانت الساعة نحو العاشرة صباحاً، أي كنت ما زلت بين الصحوة والنوم، أتمطمط قليلاً عندما أقف على إشارة حمراء وأتثاءب أحياناً أخرى. خصوصاً أن نوافذ السيارة مغلقة من شدة البرد في الخارج. على حين غرة أسمع رنين هاتفي الجوال، أتجاهله، «مالي خلق رد على حدا»، يتواصل الرنين إلى أن تناولته: «ألو..».

دون أي مقدمات قال الصوت: «أنت شوكت؟».

قلت: «إي أنا شوكت، مين معي؟».

قال: «أنا الرائد طارق».

قلت: «حلّ عني أنا ما بعرف لا رواد وملازمين ولا غيرن، شو هالمزحة هي من الصبح؟».

قال بصوت حازم: «أنا ما عم أمزح.. أنا الرائد طارق، وإحكي بجد وبلاها حلّ عني هي..».

قلت وقد ارتجف صوتي: «ماذا تريد سيادة الرائد؟».

قال: «هل فتحت صفحتك على الفيسبوك اليوم؟».

قلت: «لا لم أفتحها بعد!».

قال: «عندما تصل إلى المكان الذي تتوجه إليه افتحها وحاكيني على رقمي الذي ظهر عندك، وإياك أن تتباطأ»، ثم أغلق الخط.

لا أدري كيف وصلت، وأي الطرق سلكت؟ بدت المسافة طويلة جداً، حاولت أن أتذكر: ما الذي على صفحتي؟ لا أذكر أنني كتبت شيئاً يتعلق بما يحصل في البلد أبداً، ولم أستلم أي شيء مشابه، إذاً ما الذي قرأه؟

فتحت صفحتي، لأجد آلاف «اللايكات» ومئات التعليقات على «بوست» كنت قد كتبته في ذكرى رحيل والدي. حقاً استغربت عدد «اللايكات والتعليقات». أعدت قراءة «البوست» أكثر من مرة، لم أكتشف أي معنى يمس بأمن الدولة أو هيبتها.

ما الذي أزعجهم في كلماتي؟ كل ما فيها الاشتياق وأهمية الأصدقاء ووقفتهم معاً في الظروف الصعبة، وتعاطفهم معي واستعدادهم للوقوف بجانبي متى شئت ذلك. لا أدري فعلاً ما الذي لفت نظرهم؟

تناولت جهازي الخليوي لأتحدث إليه، وكلي ثقة أن في الموضوع تشابه أسماء أو خطأ ما.

طلبت الرقم، وانتظرت ثواني، إلى أن رد عليّ الضابط طارق: «شو سيد شوكت شفت صفحتك؟».

قلت: «نعم شفتا، وأكيد حضرتكم ما بتقصدوني أنا!».

قال: «لا، لا، أنت المقصود، ولو ياسيد شوكت، كلامك كتير واضح وما بدّو تنين يختلفوا عليه، دعوتك واضحة وصريحة لتعمل شي، وما شاللّه محبّينك كتار متل مو مبيّن من الإعجابات والتعليقات، ومهمتك هلق تقلنا شو هو اللي ناوي عليه».

قلت باستغراب شديد: «أبداً يا سيدي.. الموضوع كله يدور حول

ذكرى وفاة والدي وحاجتي إلى وجوده، واشتياقي إليه، ولا ذنب لي في عدد الإعجابات التي سُجلت على ما كتبت».

قال: «شوف شوكت، هي الأمور ما بتمشي علينا أبداً، بتشرّف لعنّا بكرا الصبح، وعلى رواق بتحكيلنا كل شي، وهلق قبل ما تشرّف بتمحي اللي كاتبو، وأنا رح ابعتلك (بوست) صغير تحطّو محله».

وأيضاً أغلق الخط.

بعد دقائق وصل إلى البريد الخاص بي «بوست» يحيّي القائد مع صورة، عليّ أن أضعه علي صفحتي، وهكذا فعلت. بعدئذ تلقيت هاتفاً من مكتب الرائد طارق.

قال لي: «هيك كتير منيح، بس الأحسن هلق تكتب إنت من عندك شي يأكد التزامك بمحبة القائد والوطن، ماشي؟ ناطرك!».

قلت: «لا أدري ماذا أكتب، القائد والوطن؟ خلّونا عالوطن!!».

وفعلاً كتبت عن الوطن، عن دمشق وعشقها، عن ياسمينها..

ولكن كيف سأشرح للجميع ما أنا فيه، ولمَ فعلت ما فعلت؟ حتى أمي لم أسلم من توبيخها لي، لحظة دخولي إلى المنزل تناولتني: «ماذا فعلت؟ شو جنّيت؟ أنت تكتب هيك وتحط صورة كمان؟ شو قصتك، صايرلك شي؟!». ورحت أشرح لها ما حدث معي، وهي تصغي كأنها غير مصدّقة، وتقول: «يا لطيف، هلق كلنا هيك مكشوفين أمامهم، لم أكن أصدق كلاماً يُقال عن أنهم قادرين على قراءة أفكارنا حتى!».

انهمرت علينا التلفونات، الكل يسأل: «هل باع شوكت نفسه إلى الأمن؟ كم دفعوا له؟».

ريثما اتضح موقفي أمام الأصحاب والأقارب، أصبحت ضيفاً في أحد فروع الأمن، لأرى بأم عيني وأجرّب بنفسي، ماذا يعني أن تكون مواطناً من الدرجة الثانية أو الثالثة في الوطن.

وخرجت بخبرة مقيتة لن أنساها مدى الحياة، حشروني في غرفة مع مئتي شخص، وهي لا تتسع لأكثر من مئة، كادت جلودنا أن تنسلخ من الاحتكاك الإجباري، أعتقد أنه مع الوقت ستنسلخ بعض الجلود، يدربوننا على الذل والمهانة وقهر الذات بطرق مخترعة لا أدري كيف تدربوا عليها، وعلى دفن إنسانيتنا. كنا ننام شبه واقفين، أحدنا يسند نصف جسده على الحائط وآخر يسند جسده على زميله، وهكذا حتى نتحوّل إلى كتلة بشرية غير قابلة للاختراق أو التحرك. ولم يكن هناك طريقة أخرى كي يتسع المكان لجثثنا التي تبدو حية ولكنها في حالة لا تشبه أي حياة. لن أطيل في شرح ما كنّا نتعرض له من تعذيب وضرب، لأنه بات معروفاً لدى الجميع. في المعتقلات، كلنا نتشابه.

ها أنا ذا اليوم أبحث عن خلاص ذاتيّ يبعدني عن المكان والجو وعن كل ما يذكّرني برجل أمن أو شرطي أو حتى أي شخص يلبس لباساً رسمياً له رمزه العسكري.

نعم، بتّ أخشاهم، أخشى المرور بمحاذاتهم، بل أخشى على نفسي من نفسي، وأنا أتحوّل إلى شخص لا يملك من التحكم بحياته إلا الأكل والشرب.. ويا لها من حياة!!

ما الفرق... بين الاعتقال والخطف؟

التطيّر حالة تنتابنا أحياناً، لكنها تعبر وكأنها لم تكن.

في الصباح الباكر في يوم معتدل من بداية شهر حزيران 2014، يوقظني من نومي نعيب غراب يهجم على شرفتي الغربية مطارداً «ستيتية» صغيرة تحاول الهرب منه، أطرده، وأحملها بحنان لم أعرف سببه، أدخلها إلى مطبخي، أطعمها فتات الخبز المبلل وأسقيها، ثم أعيدها إلى الشرفة لتختار البقاء أو الطيران.

غراب في الصباح؟! هل صحيح أنه نذير شؤم، أم أنه مجرد قولٍ من إرث ثقافي تناقلناه من جيل إلى جيل؟ لا أدري!

مارست طقوسي الصباحية كالمعتاد، وشربت قهوتي ولبست ملابسي وخرجت لأشتري ما نحتاجه للغداء. في طريق العودة، قبل وصولي إلى مدخل البناية بقليل، اعترضتني سيارة «كيا» مفيّمة، وظهر رأس أحدهم من نافذتها، قال لي: «شو.. أبتعرف تمشي بالطريق؟ العمى بدك تبلينا فيك؟ والله بيحسبوك علينا شب وأنت عمرك تمينين سنة!».

نظرت حولي، أنا الأقرب إليهم، إذاً، أنا المقصود.

قلت له: «أنت من يكاد يدهسني!».

قال: «اسكوت اسكوت.. وهات هويتك».

قلت: «ليش بدك هويتي؟ مين إنتو؟».

قال: «نحنا أمن!».

أعطيته الهوية، قرأها وقال لي: «حطّ أغراضك وتعا معنا.. يالله ناطرينك!».

في هذه اللحظة مرَّ جار لي عرف ما يجري، تناول مني الأغراض، هو ضابط متقاعد، تحدّث إليهم قليلاً ثم قال لي: «اذهب معهم وسيعيدونك بعد ساعتين». عندئذ نظرت إلى الشخص الذي يحمل هويتي وقلت له: «ستعيدونني إلى هنا، أي لا أريد الشنططة!».

ابتسم وقال بلهجة جدية وصوت ممطوط: «أكيد!».

أحدهم فتح باب السيارة الخلفي وضغط على رأسي، وحشرني في المقعد الخلفي.

* * *

لا أدري في أي طريق ولا في أي منطقة تبدّلت السيارة، لأنهم وضعوا كيساً أسود على رأسي، فلم أعد أرى شيئاً. وأعتقد أنهم كانوا يقودون في طريق وعرة، فقد أخذت السيارة ترتجّ وتهبط وتعلو.

لم تبدأ الحكاية بعد، كل ذلك تمرين لما سيأتي.

قبل أن ننزل من السيارة، أحدهم رفع الكيس الأسود عن وجهي قليلاً، وأضاف عصبة سوداء على عيوني، وأودعوني في مكان ادّعوا أنه فرع أمن، وبدأت الحكاية.

يومان يشبهان الحبس الانفرادي، دون شرب، دون أكل، دون صوت، الصمت مريب، كنت قد سمعت أن فروع الأمن تضج بأصوات المعتقلين، بآه التعذيب، لم أسمع شيئاً من هذا، صمت مطبق.

حتى الآن لا أعرف ما تهمتي، ولا لماذا أنا هنا، كل ما أعرفه أنني

أخشى رجال الأمن، وأعرف أن أصغرهم قادر على تدمير كبريائنا، وتحويلنا إلى مستضعفين لا نطلب سوى الرحمة، خصوصاً في مثل سني.

دخل أحدهم الغرفة التي أنا فيها ثم سمعت خطا، قال الأول: «احترامي سيدي النقيب»، وبُدئ باستجوابي: «أنت فلان؟».

قلت: «نعم».

قال: «أنت متهم بدعم الإرهاب».

رفعت رأسي قليلاً، عندئذ جاءتني على كتفي ضربة عصاية تبدو أنها من البلاستيك، وقال لي: «عندما أكلمك أخفض رأسك، بل لا ترفعه أبداً!»، خفضت رأسي وقلت: «أنا لا أموّل أحداً».

أعادوا التهمة بأساليب متنوعة مع لكمات على جسدي كله، مرة بيده ومرة بالعصا، وأنا أنفي.

انسحبوا من الغرفة وتركوني وحيداً، تناهى إلى سمعي أصوات أطفال يلعبون قريباً من المكان الذي أنا فيه، استغربت كيف أسمع هذه الأصوات والمفروض أن أكون في مكان ما من فرع للأمن لا يُسمع فيه مثل هذه الأصوات.

في اليوم التالي دخل عليّ أحدهم وبيده قطعة جبنة صغيرة، اكتشفتها بعد أن أصبحت في يدي.

قال: «مانك جوعان؟!».

قلت: «أكيد جوعان».

قال: «كول الجبنة!».

قلت: «ما فيني.. أنا معي ضغط وأنتو ما عم تسقوني ميّ!».

قال: «كول كول، حيططلك عليها شوية سمنة».

عدت بالذاكرة إلى أيام الطفولة، حين كانت أمي رحمها الله تجبرنا

على تناول ملعقة سمنة بلدي على الريق، وحين كنت أرفض، كانت تقول لي: «ستشكرني عندما تصبح في الثمانين»، نعم أشكرك يا أمي، سمنتك أمدّتني بقوّتي هذه لأتحمّل ما لا يحتمله الشباب. (ما هذه المصادفة؟ أنا في الثمانين!).

كل ذلك كان مقدمات لابتزاز لم يعلن عنه بعد.

انقضت ثلاثة أيام وكل يوم يمر يشتد التهديد بأنهم سيبدّلون الغرفة التي أنا فيها إلى غرفة أصغر وأصغر إلى أن أصل إلى حيث لا يعرف الطير الأزرق مكاني. وبصريح العبارة قالوها: «بتدفع خمسين مليون ليرة سورية، بتشتري حياتك!».

عندئذ تجرأت وسألتهم: «هل أنتم أمن حقيقة؟».

أحدهم قال: «وليش أبتصدّق؟ آبحقّلنا نعيش متل الخلق والناس؟»، وقال لي: «هلق أنت بتحب بشار الأسد؟».

قلت: «نعم، أحبه!».

قال: «بس نحنا من جماعتو المظلومين، اللي ما نابنا منّن شي. وهلق بتحبو آبتحبو.. بدنا خمسين مليون حتى نتركك، وإلا مانك شايف الضو. نحنا منعرف شو ما يصير.. كلن ما يسرقو وينهبو ويخطفو ويصيرو أغنياء، ولك اللي على الحواجز صاروا ملوك، وليك إذا تعاونت معنا وأعطيتنا اللي بدنا ياه، رح نصير صحبة، يعني أصدقاء، ورح ندعمك بس تطلع. مبيّن عليك طيب وحباب. ورح يكون عندك واسطة كبيرة بالبلد، ورح نحميك!».

سأدفع لهم لأصبح في ما بعد رجلاً مدعوماً، ولي أصحاب في الأمن، ولديّ من يحميني!! لم أكن بحاجة إلى حماية، لدي أبنائي، لدي أسرتي، لدي أصدقائي. نسي هؤلاء أنني عملت طوال عمري وشقيت وجعت وتعبت حتى وصلت إلى ما أنا فيه، وها هم سيأخذون ثروتي كلها مقابل حياتي،

وسيعيدونني إلى الصفر، ما أقسى الحياة وما أظلمها! هل ستنتهي حياتي هنا؟ هل سأكمل ما بقي لي من سنوات العمر القليلة بذكرى ستطحن قلبي كل صباح حين أجلس على شرفتي (إن عدت سالماً) مع فنجان قهوتي المرّة؟ وهل سيأتي الغراب مرة أخرى؟ وهل ستنجو «الستيتية» منه؟!

حاولت إقناعهم بأني لا أملك نقوداً نقداً، بل أملك عقارات وبإمكاني أن أبيعها ولو بخسارة إن تركوني، مع تعهد أن أضمن لهم وصول مبلغ تفاوضت معهم حتى وصل إلى خمسة وعشرين مليوناً.

قال لي: «آمعك دهب؟ آمعك دولارات؟ حساب بلبنان؟».

قلت: «لا ليس معي، لكن ممكن أن أدفع مبلغاً سلفة إن رغبتم!».

قال: «ويلك إذا ما نفّذت أو اشتكيت لحدا، نحنا كل يوم منشوفك على بلكونك متشرب القهوة أو متسقي الزريعة، ليك حقك طلقة!».

* * *

حملوني بسيارة «زيل» كبيرة وعلى عيوني العصبة السوداء نفسها، ولم أكن أدري ماذا سيفعلون بي ولماذا أخرجوني من الغرفة؟ رموني على قارعة شارع ما، وأنا ملفوف بشرشف، بقيت أتدحرج على الإسفلت إلى أن خلّصت نفسي من الشرشف ولوّحت لسيارات عابرة، لم تقف لي، أنقذني سائق دراجة حكيت له قصتي فوضعني على حاجز الصبورة، وهناك شربت ماءً وعصيراً، حين عرفوا أنني كنت مخطوفاً.

بعد التحقيق معي، عدت إلى منزلي لأكتشف أن الخاطفين ضباط مستوى ثان أو ثالث من الفرقة الرابعة، أنقذني منهم من هم أعلى منهم سلطة، لا تضامناً معي وإنما نكاية بالخاطفين.

سيكلمك الله ويضحك إليك

عليّ أن أعترف بدهشتي مما شاهدته على الشاشة تلك الليلة، أقول أعترف بدهشتي، لأن الدهشة حالة جميلة قلما تزورنا. إلا أنها باتت تتكرر مرات ومرات، في الحرب السورية بين الإخوة، وقد تتكرر في اليوم الواحد مرات عدة، ولم تعد جميلة!

ما أدهشني لم يكن حدثاً فريداً أو جديداً، فهو يتكرر في أماكن كثيرة ويقوم به شبان بأعمار مختلفة، لكنني كنت أسمع به ولا أراه، والسمع حاسة تأثيرها أقل من النظر، فأن ترى صورة يعني أنها قد تنطبع في ذاكرتك إلى الأبد أو أقله إلى أمد بعيد، في الرؤية تنسخ العين الصورة وتدفعها إلى أماكن كثيرة في العقل والنفس والخيال.

ما شاهدته على الشاشة بوضوح تام مقطع فيديو[2] يعرض اللحظات قبل الأخيرة لشاب في نحو الثامنة عشرة من عمره أو أقل، يتنقل بين مجموعة من الشباب في مثل سنه أو أكبر أو أصغر، وابتسامة غامضة ترتسم على وجهه وفرح طفولي يغطي ملامحه، حليق الذقن، يرتدي بنطال جينز وبلوزة قطنية بيضاء، رُسم على صدرها شيء ما، الدائرة تكبر حول الشاب، يصطفّون بانتظام كلٌّ ينتظر دوره ليودّعه ويقول جملته

2- في تفجير حاجز معلولا، الفيديو بثّته جماعة من جبهة النصرة على مواقع التواصل الاجتماعي.

المتفق عليها كما يبدو، فالجمل واضحة على الألسنة دون أن تتكرر، يتقدم أحدهم، ثم آخر ثم آخر إلى أن ينتهي الجميع من إلقاء جملهم: «ستكون في الفردوس الأعلى، روحك ستسرح في الجنة حيث شاءت، سيكلمك الله وسيضحك إليك، ستتزوج الحور العين، ستتمتع برزق الله صباحاً ومساءً، ستكون في دار الشهداء، سيوضع على رأسك تاج الوقار.. ستشفع لسبعين من أقاربك، ستحفظ جثتك ولن تبلى..».

لحظة، ثم يظهر رجل في نحو الخمسين من العمر، ذو لحية حمراء طويلة غير مشذبة، يقترب من الشاب، والجميع يبتعد، يصافحه بحرارة ثم يأخذه بين ذراعيه، مطبطباً على ظهره.

«أتدري لماذا اخترتك يا بني؟».

ينظر إليه الفتى دون أن يتكلم.

«اخترتك لأنك الأصلح، لتقابل وجه الله العلي القدير، بالأصح لم أخترك أنا، بل رب العالمين هو من اختارك، فالرؤيا التي راودتني منذ أيام، كانت عنك، عن صلاحك وأخلاقك وحسن سلوكك.. ستكون مهمتك بعون الله نافعة لنا ولك يا بني، لحظة الانفجار سيُقتل منهم عدد لا يستهان به، وروحك ستصعد إلى السماء في تلك اللحظة..».

همهمات بين الشباب: «نيّالك.. ستسبقنا إلى الجنة، ستلاقي الحور العين.. ستمرح.. ستفرح..»، ثم يحملونه على الأكف ويرفعونه إلى أعلى كأنهم في جنازة شهيد، يصرخ الشاب بعد أن أغمض عينيه: «إني أراه، إني أراه»، الجميع يصمت، «إني أرى نور وجهه، أرى الملائكة، أرى جمال الجنة..».

يقاطعهم الرجل: «نعم يا بني، سترى أكثر من ذلك، سترى أنهار العسل والخمر والجميلات، سترى أجمل الأشجار التي لم تر مثلها على الأرض، أما أنتم، فأقول لكم: انتظروا، لا تستعجلوا فلكم في الجنة

نصيب، وكل بيومه وسيأتي هذا اليوم، ولن يكون بعيداً. أبنائي: المهم أن تعدّوا أنفسكم وتبقوا على ما أنتم عليه من إيمان وتقوى، وصدّقوني يا أبنائي، إن أخاكم ـ يشير بيده إلى الفتى ـ سينتقل إلى ربه دون ألم يُذكر، فالشهيد لا يشعر إلا بألم بسيط كلدغة حشرة مهما كانت إصابته قوية، صدّقوني ستعيدون الشهادة إن عدتم إلى الأرض مرة وثانية وثالثة، وفي كل مرة ستلقون ما يسرّكم. ستلتقون في الجنة إن شاء اللّه وستكونون خير خلق».

الجميع ينظر إلى الأعلى باسطاً يديه وكأنهم في ذهول ممتع.

أما الشاب الذي ما زال في الوسط، فكان يتحسس حزامه المشدود إلى خصره، كمن يتحسس ثديي شابة في مقتبل العمر للمرة الأولى.

أحاسيس غير مكتملة

الرحلة الأولى:

من بلادٍ لم تعطني ما أريد، لكنني ما زلت أسكنها..

الرحلة ابتدأت، أنظر من نافذتي.. لا غيم في السماء، ومن أين يأتي الغيم؟ هذي البلاد لا تستجلب الغيوم، كل ما فيها قسريّ، لا خريف ولا ربيع ولا شتاء، وكأنها وحّدت الفصول في صيف حارق. يقفز ذهني إلى بلدي، أنتعش قليلاً بذكرى المطر وتكسّر حباته على قارعة الرصيف قرب بيتنا، أرى شجراً أخضر يعلو سامقاً في بساتين عشوائية لا فضل لإنسان عليها، وأرى عشباً تائهاً بين الصخور، أرى ماءً غير مُعبأ في عبوات بلاستيكية، ينداح من حنفية في مطبخ أهلي، فأشربها مباشرة، باردة منعشة.

يوقظني من هلوساتي صوت المضيفة وهي تتلو تعليمات السلامة. أنصت إليها دون استيعاب ما تقول، أتوسل إليها بعينيّ أن تصمت وتتركني لحلمي.

ترتفع الطائرة أكثر، أشعر كأني خُطفت من مكاني لحظة وعدت إليه. يعود الصمت، وأعود إلى هلوساتي. الآن في ذهني فكرة واحدة:

كيف سأرى بلدي؟ ثلاث سنوات مرّت وأنا أتابع أخبارها الموجعة

عبر وسائل الإعلام، فتنتابني عبثية غريبة تثقل حياتي كلها وتضعني في غربة عن نفسي وعمّن حولي. حاولت جاهدة ألا أستسلم لهذا الوضع، وفشلت.

على متن الطائرة التي ستقلّني إلى بيروت محطة أولى، أصبح الزمن ثقيلاً ثقيلاً. كأن الطائرة ثبتت في مكانها وعقارب ساعاتي تقصدت البطء، أتفقد دورانها كل لحظة: بطيئة حتى الملل.

أعود وأقول لنفسي: ولمَ العجلة، فلتتأجل الفاجعة قليلاً؟ إن كان ما تبثه وسائل الإعلام صحيحاً فماذا سأرى؟ بيوتاً وشوارع مهدمة، قبوراً لا تعد ولا تحصى، آثار حرائق التهمت كل ما مرت عليه، أم نفوساً محطمة، أم ما تبقى من محبة الناس بعضهم لبعض، أم رائحة الطائفية التي تعبق بها البلاد؟

«الحنين ندبة في القلب وبصمة بلد على جسد!»، هذا ما قاله محمود درويش وهذا ما أشعر به، وهذا ليس خياري.

إذاً سأحاول أن أحتال على الوقت بفيلم أو لعبة أو قراءة ما بيدي، إن استطعت إلى ذلك سبيلاً.

تحطّ الطائرة في مطار بيروت، أستعجل الهبوط منها، أعرف أن شقيقتي بانتظاري. ستكون أول اتصال لي ببلدي، وربما أستطلع منها عن أشياء مبهمة، تخفف من عبء ما في قلبي قليلاً.

الرحلة الثانية:

سنبيت في بيروت.

لم أنم هذه الليلة، أكابد صراعاً: أنا على وشك رجوع موجع إلى بلدي، هل كان علي أن أُبقيها على صورتها القديمة أم أدخل في متاهة الصدمة؟

كلما غفوت أيقظتني دقات قلبي، تتوقف تارة وتسرع تارة، كنت رهينة تلك الدقات، شعرت أنني على شفير موت، فأنا مملوءة بخوف تراكم على مدى سنوات ثلاث، بعثرني في أماكن من بلادي لم تفارق خيالي وأنا أراها على شاشات تلفزيونات العالم مهدمة، محروقة، وبعضها دون أثر. أماكن لم يكن بعضها يعنيني ولم تنل مني استحقاقها في تلك اللحظات العابرة، وها هي ذي اليوم تسكن خيالي، تلك الآثار التي دُمرت ونُهبت، تلك المعالم التي شُوّهت والمدن التي ما عادت مدناً، أتخيّل مدينة بلا سكان! لا.. لا.. إنه محض خيال!

كان علينا أن ننطلق في العاشرة صباحاً، لكن السائق تأخر ساعة كاملة، هو لا يعرف مدى قلقي، لكنني ربما أحببت هذا التأخير!

بعد اجتيازنا للحدود اللبنانية، شعرت بهواء لطيف هبّ علينا، استنشقته بمجاز العاشق..

بطريقة حيّرتني، أنهى السائق معاملاتنا على الحدود السورية دون أن نضطر للنزول من السيارة، انتهت حيرتي حين عاد ووزع علينا جوازات السفر وقال: «كل شي بحقّو!».

كل شيء أصبح مهيأً للدخول إلى الأراضي السورية، إلا قلبي الذي ازداد خفقاناً وخوفاً.

إنها المرة الأولى التي أدخل فيها إلى سورية من «الدبوسية»، وأول مرة بعد الأزمة أزور بلدي، أي أنني سأرى أماكن جديدة لم أرها من قبل ولا أدري ما هي المفاجآت.

بعد بضعة كيلومترات دخلنا قرى المنطقة، يستعدُّ خيالي لاستقبال ما سمعته عن جمال تلك المناطق وسحر مناظرها، لكن فجأة تشحب صورة البلاد بل تَسودّ وتزداد قتامةً كلما أوغلنا في السير. يا إلهي: أين أنت، هل غفوت غفوة أبدية؟!

تغيّر المشهد وتغيّرت الرائحة وعَفِن الهواء.

الأشجار تبكي بصمت وأغصانها لم تعد مشرئبة كما عهدتها، وأعمدة الكهرباء تخلّت عن عملها الأصلي لتتحوّل إلى حاملة لصورهم.

كأنني على مسافة قصيرة من مقبرة جماعية، تطفو على سطح قبورها أجساد غضة.

يا لهذه العيون المتطلعة إلى الغد، يا لهذه الوجوه التي لم يكتمل نضجها بعد!

لا أبالغ إن قلت: على مسافة الطريق كلها من حدود الدبوسية إلى مصياف، كل شجرة وكل عمود كهرباء دون استثناء، يحمل صورة أو صورتين لـ «شهيد»!

وعلى الصورة كُتب الاسم كاملاً والرتبة إن وجدت، وكلمة شهيد في أعلى الصورة بخط كبير. أصبح للشجر أسماء. وكل هذه الأسماء لها مدلولاتها. طائفة كاملة يختل هرمها السكاني لتصبح نسبة الشباب في قمة الهرم.

علّمونا أن الشهادة لا تليق إلا بمن مات دفاعاً عن حدود الوطن وأرضه!

حاولت أن أحصي عدد هؤلاء الشبان الموتى، وعجزت، ما أراه جعلني أشكّ بكل الأرقام التي قدّمتها الجهات المعنية، فهؤلاء يصعب إحصاؤهم. وقد علمت في ما بعد، أن كثيراً منهم لم تسلّم جثامينهم وبقيت أسماؤهم مقيّدة في سجلات الأحياء.

في هذا المشهد السريالي، كأن ظل هؤلاء انعكس على كل معالم الطبيعة المحيطة، فالغيوم في السماء رمادية تأخذ أشكالاً مخيفة، والجبال كأنها جرداء، وللحقول صفرة أشعلتها شمس تموز دون رحمة.

وماذا عن الطرف الآخر من البلاد؟ أهناك منظر مشابه؟!

ويبقى السؤال الذي لم يبارح خيالي: كلهم سوريون، ولكن كيف سيستقبلهم الله؟!

الرحلة الثالثة:

إلى حمص، 17 تموز 2014

جاء اقتراح أختي المهجّرة من حمص، تلبية لرغبة لم أكن أعرف كيف أحققها. ما رأيته حتى الآن لم يشبع فضولي، ما زال المشهد ناقصاً.

قالت لي: هل ترافقينني إلى حمص، فزوجي سيجري عملية لأحد المرضى في مشفى هناك؟

قلت لها دون أي تفكير أو تردد: أكيد، فأنا أتوق لأرى هذه المدينة تحديداً. المدينة التي اشتُهرت في العالم كله على ما أعتقد، بدمارها، بحصارها، بتهجير أهلها هجرات متكررة، حمص المدينة الأكثر حضوراً بما قدّمته من حكايا كالأساطير..

انطلقنا في السابعة صباحاً من قرية البيضا إلى حمص، يتكرر مشهد الأشجار ذات الأسماء تملأ الطريق، حاولت ألا أظهر مشاعري التراجيدية، فأختي جاهزة لاستقبال أية عاطفة سلبية، وعندئذ ستنقلب الرحلة إلى ما يشبه المأتم.

كان الطريق أطول من المعتاد، فالحَولة التي نمر بها عادة محاصرة ويمنع المرور فيها منعا باتاً، وعلينا أن نجتاز قرى إضافية للوصول إلى حمص.

كتوارد خواطر، تذكّرت أولاد الحَولة الذين تعوّدنا عليهم وهم يتسابقون لبيعنا العجّور والمقتا، تذكرت حقولها الممتدة كبحر أخضر

ثم ذهبي أيام الحصاد، تذكرت بائع الجبنة والشنكليش وهو يستقبلنا بفناجين القهوة المرّة، يتذوقها قبل أن يقدّمها، تذكرت نساءها وهنّ يحملن منتجات حقولهن على رؤوسن، بلباسهن التقليدي، هنّ من يعمل في الحقول والبيادر، والرجال للمضافات وأعمال التجارة. وتذكرت مجزة الحَولة، كم طفلاً ممن اشترينا منهم عجّور، أثناء عبورنا، قبل الانتفاضة، قُتل؟! يا للهول!!

* * *

ها نحن أولاء على مشارف حمص، حالة من التوجس والترقب سيطرت عليّ، ما زال المشهد غامضاً، نقترب أكثر يزداد قلبي خفقاناً. أحدّق في المدى البعيد، أرى أسراب غربان سود تغطي السماء وبعضها ينقض على شيء ما، يقتنصه ويعلو.

تقف السيارة على مدخل شارع الحميدية الرئيسي، أنفض رأسي، أصحو، أنزل أنا وأختي، تغيب السيارة في ضباب مفترض.

الساعة الثامنة والنصف صباحاً، سكون مهيب، نمشي في الشارع الطويل وقد تضاءل عرضه، على جانبي الطريق ركام أبنية مهدمة، شغلتْ جزءاً كبيراً منه. وحدنا، لا صوت في الطريق سوى صوت وقع أقدامنا. كلما أوغلنا في السير، ازداد الطريق وحشةً.. لا أحد!

كم أخشى أن أتعثر بجثة لم تكتشف بعد، أو بأشلاء مبعثرة، تحت هذا الركام، أراقب خطواتي بخوف، فالبيئة مواتية لجلب أكبر القوارض والحشرات.

تلحُّ أختي على زيارة ما تبقى من بيتها. أتوسلها: أن تتركني مع صورته القديمة، لا تأبه، تستعجل الخطا وأنا أتبعها. نمشي ونمشي.. ما زال الصمت القاتل يلفّنا، وصوت أقدامنا يعلو. تمنيت في تلك اللحظة أن أرى كائناً بشرياً نستأنس به.

على بعد أمتار لاح حاجز عسكري، لا أدري هل أطمئن؟ أعتقد أنه كالحواجز التي مررت بها على الطريق من الحدود إلى مصياف، جاهزين لتمريرك حتى لو كنت تحمل بيتاً كاملاً، إن دفعت.

أختي تستعجلني، أنا المسلوبة في ما أرى..

قلت لها: سمعنا في الإعلام عن فرح أهل حمص وعودتهم إلى ديارهم.

دون أن تلتفت قالت لي: امشي، امشي! وكأنها تقول: اصمتي! ها أنت ترين بأم عينك ما حدث لحمص، كيف سيعودون؟ وإلى أين؟!

ثم قالت بغضب وأسى: وماذا تريدين من الإعلام أن يقول؟ هل يقولون لك: أبناء حمص لا يستطيعون العودة، بعد أن حررنا حمص؟

تابعتْ: في البدء صدّقنا الخبر، وكالمجانين توجه من بقي من أهل حمص، وكلنا اشتياق ولوعة لنستطلع الواقع وماذا حلَّ في بيوتنا، كنا كالقطيع دون راع، نركض ونتدافع ونزيح بعضنا بعضاً للوصول إلى الحاجز العسكري، وحين وصلنا كانت الصدمة الكبرى، منعونا من الدخول وسدّوا علينا الطريق، وأطلقوا النار في الهواء. لهفتنا اشتعلت وفضولنا طيّر عقول البعض، فهجم بعض الرجال على عناصر الحاجز وأزاحوهم بالقوة، فدخلنا كمياه هادرة.. وبعد قليل سترين.. سترين المأساة.

سكتت بعد أن ابتعلت ريقها الذي كاد يخنقها.

كأننا وصلنا، لكن المكان دون معالم، أكوام من الحجارة والتراب الأسود والخشب المحروق.

قالت وكأنها تسخر: هذه بنايتنا!

وأين الفرن وبياع الفطائر؟ سألتها.

قالت: اتهموا بتمويل المسلحين وهُدمت وحُرقت محلاتهم. دعكِ من الأسئلة الآن، سنصعد إلى البيت.

وقبل أن انطق، سحبتني من يدي ودارت دورة كاملة حول الركام لنصل إلى بناية خلفية تطل على بنايتها، ما زال درجها وبعض بيوتها صالحين للاستعمال. من أحد البيوت رأينا بقايا بيتها، بدأت تشير بيدها إلى الأماكن: هذه غرفة نومي وهذه غرفة ابني وهذا مطبخي وهذا وهذا، وهذا.. وبدأ صوتها يعلو ويعلو، ثم انفجرت في بكاء حاد كنصل سكين يخترق القلب.

ضممتها إلى صدري رغم هشاشتي، علّني أمتص شيئاً من طاقتها السلبية، لكنني لم أفلح.

لا أدري كيف انتهت زيارة حمص القديمة، لكنني واثقة من أنني لم أكن أريد أن أتابع مشاهداتي في هذه المدينة الكئيبة التي ما زالت شوارعها تخبر قصص من ماتوا قنصاً أو برصاصة حاقدة أو طائشة، أو تحت الأنقاض. وأبوابها الفاغرة تتلو الحكاية تلو الأخرى، فلكل بيت قصة سيزيفية، مجهولة النهاية.

يرتد كل شيء إلى داخلي، أرتعد من خيالي وهو يستحضر صور الأمهات الثكالى، صور الأطفال على قارعة الشوارع القاسية. صور: الأب فرانس وباسل شحادة وحكم دراق سباعي وأبو وليم وغيرهم..

أغمض عينيّ، يزداد المشهد قتامةً ولبساً..

هل ارتكبت خطأً في جولتي هذه، أم أنها كانت ضرورية لأروي، كشاهد على موت بلد، لا أدري متى قيامته؟!

كلحظة صعود الروح

«الأقدار المرتسمة فيه تلحق بنا
بسرعة، خلّ الحياة متوازنة، بين حياة
ملموسة وحياة نصنعها بخيالاتنا. الكثير من
اللحظات ليست طبيعية في هذه المملكة!»

واسيني الأعرج

في تلك اللحظة الهادئة الهاربة من ذكرياته الحزينة، حصل معه الانقلاب النفسي، كأنه انقلاب فصل الصيف إلى شتاء. لا مطر خارج نافذته، لكنه مبلل بما ارتشح من صورتها على قلبه، من شاشة «الفيس بوك» الزرقاء. فتح عينيه إلى أقصى ما يمكن فتوسعت حدقتاه، وأخذتا في الدوران على تلك المساحة من الشاشة، استغرق الأمر بضع ثوان، نفض رأسه ثم حدّق من جديد، اتسعت حدقتاه أكثر حتى غام المشهد ولم يعد يرى إلا غيمة رمادية مبعثرة في سماء لا لون لها.

على متن ذكرياته عاد إلى البداية:

ذات يوم، قالت له: كم أحب الخريف! يذكّرني ببيت جدي وهم

يجلبون العنب من الكروم ويعصرونه ليتحوّل إلى عرقٍ ونبيذ وخل، يذكرني بيومٍ قطفتُ فيه زيتونَ شجرةٍ اخترتها من بين أخواتها وتابعته حتى صار زيتوناً صالحاً للأكل، يذكرني بعُرْي أشجاره، أحسدها لأنها في لحظات تُعتِق أوراقها لتتطاير حرة في الهواء..

تتحدث وكأن جسدها كله معنيٌّ بالتعبير عما تقول، فاليدان بحركتهما العفوية ترسمان دوائر مفتوحة، تنغلق في نهاية الجملة، وعيناها تلتمعان ببريق يخطف الانتباه حتى لو أن السامع في عالم آخر، ابتسامتها دائمة الحضور حتى عندما تتحدث في الشعر والفلسفة والأمور السياسية.

ذات يوم قال لها: أنا مجنون بك، ولك أن تختاري بين جنوني وجنوني.. لا خيار ثالثاً أمامك.

* * *

تأخذه الذاكرة إلى أجمل لحظات عمره..

معاً التهب حماسهما، معاً هتفا للحرية في مظاهرات دمشق أينما كانت ومن بداياتها، معاً اختبأا خوفاً من خطر الرصاص الموجّه نحو المتظاهرين. شاركا في مراسم عزاء لكثير من الشهداء الذين سقطوا على مرمى من قلوبهم برصاصٍ من ظنّ أنه يحمي البلد. حين يشهق بالبكاء كانت تحتضنه فتمتزج دموعهما المالحة، برفق تمسحها وينطلقان مرة أخرى نحو الحرية.

الذاكرة تُحيي فيك ما كان مدفوناً إلى حين في خفايا عقلك الباطني، توقظه فيشتد الألم، فالذاكرة ليست للفرح فقط..

مرميّ في زنزانته، لكن حواسه كلها تتوجه إلى الزنزانة المجاورة، حتى أثناء التعذيب، وربما هذا ما خفف عنه بعض الألم، أو جعله يتغاضى عن بعض الألم والعذاب المميتَين، كان يحاول أن يلتقط ما يجري في

الزنزانة المجاورة، ماذا يفعلون بها الآن؟ هل يعذبونها؟ وكيف؟ هل لفّ أحدهم خصلات شعرها الأسود الطويل حول كفه؟ هل يحاولون اغتصابها؟

يضرب الحائط بقوة، يصرخ: أخرجوني من هنا، أريد أن أراها، يرتد صوته ضعيفاً تعباً لا يسمعه أحد، يتلاشى جسده على أرض الزنزانة كأنه غيمة صغيرة شاردة أمام شمس حارقة. يحاول النهوض، تخذله قدماه المدمّاتان، فيستسلم لكوابيسه مرة أخرى.

صورة المحقق تظهر فجأة أمام عينيه، يراه عملاقاً بيدين من حديد، يتطاول ويتطاول، وهو يتضاءل، يتحوّل إلى كائن في منتهى الصِّغر، فيحمله الجلاد في كفّه ويفركه، ينقطع عنه الهواء، يشعر بالاختناق. يصحو مذهولاً، يتلمس أعضاءه.. أنا هو، وهذه زنزانتي!

* * *

في الحب الحقيقي تنتفي الأنانية، والمحبّ يتحول إلى متصوف يدور ويدور حول نفسه، فتفرّ منه صوب المحبوب، يحمله ويغيب في نشوة غامضة لا يدركها غيره.

لكن لا حب يشبه الآخر..

حين علم أنها غادرت المعتقل، انتشى بالخبر، هدأ، لم يعد يصرخ، عاد إلى ذكرياته وأحلامه، اشتهى مطراً وأرصفةً في مدينةٍ كان يمشي في ظل أشجارها ويده في يدها. اشتهى خبزاً طازجاً من فرن القيمرية، فرائحة ذلك الخبز تأخذ حاسة شمّك إلى أماكن الشهوة ولا تعيدها إلا بعد الإشباع، اشتهى فنجان قهوة في مقهى النوفرة، حيث لا بدّ من المرور به أثناء جولتهما الحميمة في الأزقة القديمة. وحلم بمظاهرة كبيرة تضم عدداً هائلاً من السوريين، دون رصاص، دون عنف، مظاهرة تجوب الشوارع كلها، فقط لتحقيق العدالة والحرية.. وكاد ينسى أنه

في زنزانة، لكنهم يذكّرونه دائماً حين يسمع صرير المفتاح في الباب لاستدعائه إلى تحقيق آخر لا يعرف ما هي طرق التعذيب الجديدة فيه؟

هل يتغيّر الحب؟

قلنا: لا حب يشبه الآخر، منهم من يحب ويحفر الحب في قلبه ونفسه عميقاً ويبقى ندبة في القلب، ومنهم من يحب حالة الحب فينتقل من حالة إلى أخرى.

في المسافة الفاصلة بين خروجه من السجن والبحث عن الحب، وعودته إلى المشاركة في المظاهرات والنشاطات، كانت غائبة، حيّره الغياب وأقلق نومه.

* * *

ذات مساء هادئ جلس خلف نافذته في بيته القروي المطل على بساتين ممتدة إلى ما لا نهاية، أخذ يتأمل شجرها الباسق وألوانها الساحرة، كأنه يراها للمرة الأولى، تبادر إلى ذهنه سؤال: كيف لنا أن نحوّل هذا الجمال الموجود حولنا إلى حالة وجدانية؟ أليس الجمال إحدى القيم العليا، والقيم هي التي تغيّر الناس، تنقلهم من حالٍ بدائية إلى حالة أكثر رقياً؟ الجمال متوافر، لكن من يراه؟ شعر ببعض الراحة. نهض وكأنه اكتشف شيئاً مهماً.

«هناك وقت للحب والجمال، هناك وقت للرقص والغناء، هذه إنسانيتنا!».

على صفحته في «الفيس بوك»، أرسل مجموعة صور جميلة كان قد التقطها من نافذته، كأنه ينشر الجمال.

ولكن:

وجد نفسه فجأة أمام أسوأ صدمة يمكن أن يتعرض لها، وهو يتأكد

من جودة الصور التي أرسلها إلى صفحته! في البداية لم يستوعبها، بل أُخذ بها..

هي، نعم هي، وكيف لي ألا أعرفها، حتى لو كانت بألف فستان وبكل الألوان، هي بفستانها الأبيض الطويل وشعرها المفلوت على أطراف كتفيها يتماوج كنسمة هاربة، عيناها المبتسمتان دائماً، حركة جسدها، هي، هي.. كاد أن ينهض ويرقص...

فتنه منظرها، ضحكت عيناه، صاح: ما أجملك! لم يرَ في الشخص الذي يقف إلى جانبها إلا صورته هو، كأن حلمه تحقق، يده في يدها، بعد قليل سيقبّلها قبلة عريس لعروسه. وسيحملها ويطير بها، إنه يومه المنتظر..

استفاق من غيبوبة لذيذة على واقع جمّد عقله! من أنا، من هذه، هل أعرفها حقاً، أم هناك تشابه في الأشخاص؟

لست أنا.. ليست هي.. أنه عالم «مارك زوكيربيرغ» الافتراضي، افتراضي؟! بل حقيقي أكثر من أي عالم آخر.

شاركت بحراك خطر، دخلت المعتقل، تأذيت كثيراً، لكنني لم أشعر بهذا الثقل، لم أشعر بهذا الاختلال، لم أشعر بهذا الاضمحلال، لم أشعر بهذا الموت من قبل.

غام المشهد، وببطء توارى خلف دموع لم يعد يكفكفها أحد، ولم يبق إلا غيمة رمادية كبيرة في سماء لا لون لها.. وكم يكره الرمادي!

يا رب... أبحث عنك

داخل كنيسة صغيرة تغطي جدرانها أيقونات قدّيسين، وتتدلى من سقفها ثريات قديمة ذات مصابيح تشبه الشموع المشتعلة.

كاهن شاب يقف خلف المذبح، يحمل بيده كأس نبيذ أحمر (يرمز إلى دم السيد المسيح) وملعقة صغيرة، عدد من المؤمنين يصطفّون كل بدوره، يقترب المؤمن من الكاهن، فيغرف الأخير من الكأس ويضعها في فم الشخص، تستمر العملية إلى أن ينتهي الكاهن من هذا الطقس (المناولة) وينصرف المؤمنون.

ينزع الكاهن غطاء الرأس الخاص لمثل هذا الوقت ويعلّقه في المكان المخصص له، كما يخلع رداءً خارجياً موشّى بقصاصات مذهبة ويعلّقه في مكانه أيضاً.

يرسم إشارة الصليب ويغادر الكنيسة متوجهاً إلى غرفة في بهو الكنيسة حيث يقيم.

الكاهن في غرفته الصغيرة المتواضعة. في الغرفة سرير صغير، وصليب على الجدار جهة الرأس، وبضع أيقونات، وخزانة للملابس ومنضدة عليها الإنجيل وبضعة كتب. خلفها كرسي خشبي له مسند.

خلع ما بقي من لباسه الرسمي وارتدى منامته، شعر أنه عاد إلى

طبيعته العادية. نهض ونظر إلى نفسه في المرآة الصغيرة خلف باب الغرفة، عاد إلى كرسيه وهو يداعب خصلات شعره الطويل، يعيد ضمّه بشكل جيد، يشبك يديه، يضعهما خلف رأسه، يلتفت نحو رفّ على يمينه، يلتقط كتاباً عنوانه يدل على أنه كتاب فلسفي، يفتحه على صفحة ترك فيها قصاصة لتدلّه أين وصل في القراءة، يقرأ قليلاً ثم يضعه جانباً، يمسك الإنجيل، يفتحه، يقرأ قليلاً ثم يضعه جانباً.

ينهض، يتجه نحو المرآة مرة أخرى، تلتمع عيناه، يرى في المرآة خيالاً مبهماً، يشيح بوجهه، يلتفت، يرى الخيال، يرسم إشارة الصليب، يقول: يا يسوع، هل أنا خطّاء؟ يجيب نفسه: ربما، فأنا إنسان.

الخيال لا يغادر المرآة.

يسمع صوتاً أو هكذا يتهيأ له!

يقول: أستغفرك يا رب، أنا الإنسان الخاطئ، نمجّد اسمك يا رب! يا من خلقتنا بالخطيئة!

الصوت: قم يا بني.. اطرد الشيطان وعد إلى رشدك، اطرد أفكارك الشريرة من ذهنك!

الكاهن: بل أنا من يفكر يا رب وليس الشيطان، إنه عقلي، محاكمتي العقلية أنا وليس سواي. هذه المحاكمة تضعني على مفترق طرق.

الصوت: اختارك الرب لتكون واسطة بينه وبين الناس، ترشدهم، تدلّهم على طريق الصواب والخير.

الكاهن: أستغفرك يا رب مرة أخرى، لكن لماذا يحتاج الإنسان إلى آخر ليكون مرشده ودليله إليك؟! ولماذا أنا؟ الوسطاء أجرموا يا رب.. الوسطاء يذبحون باسمك ويقتلون باسمك..

الصوت: انظر إلى نفسك جيداً، انظر إلى دواخلك، اخرج من تناقضاتك، عش كما أراد لك الرب أن تكون.

الكاهن: لكني إنسان.. آكل وأشرب وأنام وأشعر كما غيري، وهأنذا أعود إلى جحري هذا، أعود إلى نفسي، إلى أنا، إلى الإنسان.

الصوت: أنا أسكن فيك، أي أعطيك قوة السلطة على المؤمنين، كن كما أريد..

الكاهن: هؤلاء البسطاء يقبّلون يدي، يضعونها على رؤوسهم، وأنا لا يليق بي ذلك. أُحرج من كبار السن وهم يتمسحون بثوبي الذي يظنونه مقدساً. إنه ثوب ألبسه فحسب.

الصوت: هذا ما يجب أن يكون، احفظ اسمي. صلٌّ لأجلهم!

الكاهن: إذاً، جرّدني من خصائصي الإنسانية، أعطني بعضاً من ألوهيتك كي أستمر. الإنسان ابن الخطيئة، تملؤه المشاعر والأحاسيس والعواطف.

الصوت: جرّد نفسك. هبْ نفسك للسماء، صعِّد أحاسيسك، ضع مشاعرك في قلب الله!

الكاهن: حاولت كثيراً، لم أستطع، دائماً يتغلب الإنسان عندي، أفكر كثيراً بغيابك، بغياب قدرتك الكلية عن كبح همجية البشر.

يقاطعه الصوت: لا تتمادَ في الخطأ أيها العبد. الرب يغفر مرة وأخرى، وثالثة ورابعة، عد إلى رشدك وإلا فإن مصيرك جهنم.

يبدو الانزعاج على وجه الكاهن، يهز رأسه يمنة ويسرة، يصرخ: لم أنجح.. لم أنجح..

الصوت: بل ستنجح، قلت لك: هب نفسك للرب، صلِّ، تعبّد، ازهد، ازهد. ازهد بكل شيء! ابتعد عن الشيطان!

الكاهن: لماذا خلقتني؟ ولماذا وهبتني عقلاً إذاً، وعواطف ومشاعر؟!

الصوت: كي تجرّب نفسك، كي تنتصر عليها، كي تهذبها، كي تنظفها من خطاياها.

الكاهن: أطلب منك يا رب أن ترأف بالبشر، أن تظهر مرة أخرى وتقف بوجه الظلم، سئمت من موت الأطفال، من موت الشابات والشباب، من موت البشر، وأنت لا تحرك ساكناً، سئمت من الإيمان، من الغفران، في بلدي صار الموت بديل الحياة، يقولون: شهداء.. وأنا أقول: الموت غير عادل حين يحصدهم كالقمح ويضعهم على بيادر المقابر، خُلق البشر ليعيشوا. خُلق الأطفال لتكون لهم حياة حلوة. آن أوان ظهورك الثاني، اظهر الآن! اظهر الآن..

الصوت بحدة: لا تكن كافراً، لا تكن مجدّفاً، كي لا يكون مصيرك جهنم!

الكاهن: ما هي جهنم؟ ما هي الجنة؟ ما هي الحياة؟ لماذا نعيش؟ لماذا نولد؟ لماذا نموت؟!

يصرخ بأعلى صوته: من أنا؟ من خلقني؟ كيف سيكون مستقبلي؟!

هأنذا نذرت نفسي للرب، وحفظت كتابه، وحاولت أن أطبّق كل ما جاء فيه، وأحببت البشر ولم أتوانَ عن مساعدتهم. قلت لنا: من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخّرك ميلاً فاذهب معه اثنين، ثابرت على فعل ذلك، وكنت مسروراً جداً، فأنا أعمل بمشيئة الله، لكن البشر لا يأبهون، يتمادون في الطمع وينظرون إليّ على أنني رجل ضعيف، ولولا ضعفي لما كنت في هذا الوضع. هكذا ينظرون إلى أمثالي.

الآن وأنا أراقب ما يحصل في بلدي وكأنني أشاهد أفلام رعب لا يمكن لمخرج أوكاتب أن يتخيّلها. كيف لي أن أبقى أحلم في السماء والأرض هباء؟

هأنذا طلبت ملكوت الله وبرّه، ولم أهتم للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه، كما علّمتني، فلا اليوم جميل ولا الغد.

يستلقي في فراشه، يغطي وجهه بوسادة.. ينسحب الضوء ببطء وتنتشر عتمة قاتمة.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»، بمساعدة من جمعية «**مبادرة من أجل سورية جديدة**» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إدييت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.

”كلنا مشاريع موت، لا ندري متى يأتي! هكذا يقول السوري أينما كان“.

تحمل هذه الجملة التي تنهي بها الكاتبة قصّتها الأولى كلَ ما في هذه المجموعة من ألم.ففي كل قصةٍ حكايةٌ لموت اكتمل أو موت ماثل أمام الشخصيات أو في روحها.

هي حكايات قد تكون متخيّلة، لكنها حتماً ليست كذلك في بلد متخم بالموت. سيشهق القارئ عند كل نص مستوقفاً نفسه: أعرف هذه الحكاية، سمعتها هنا أو هناك، أو عشتها. وربما يستفيق مذعوراً إذ يرى نفسه بطلاً قادماً لقصة يقرؤها: لم لا؟ ألم يصبح السوريون، كل السوريين، مشاريع موت؟

بيت المواطن
للنشر و التوزيع